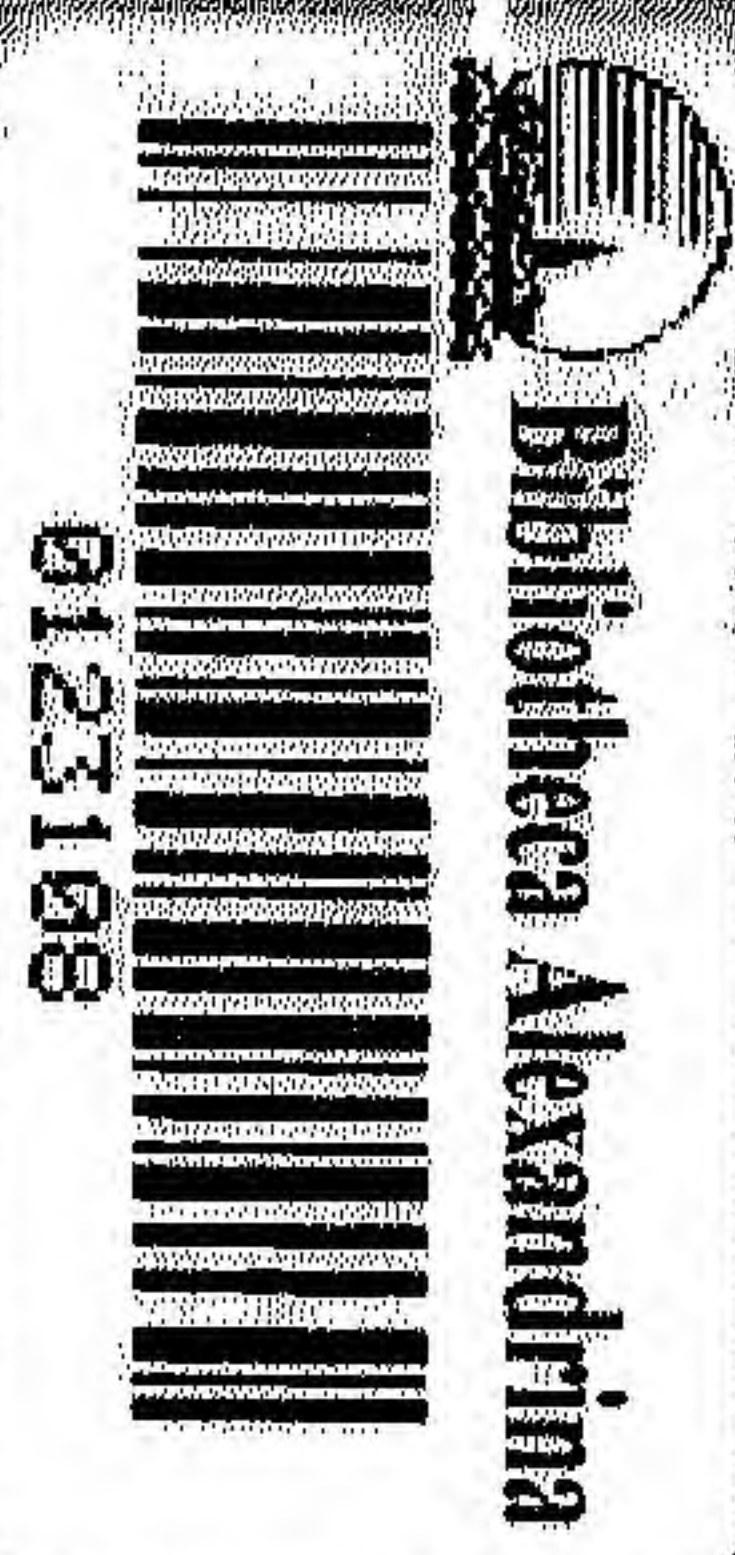
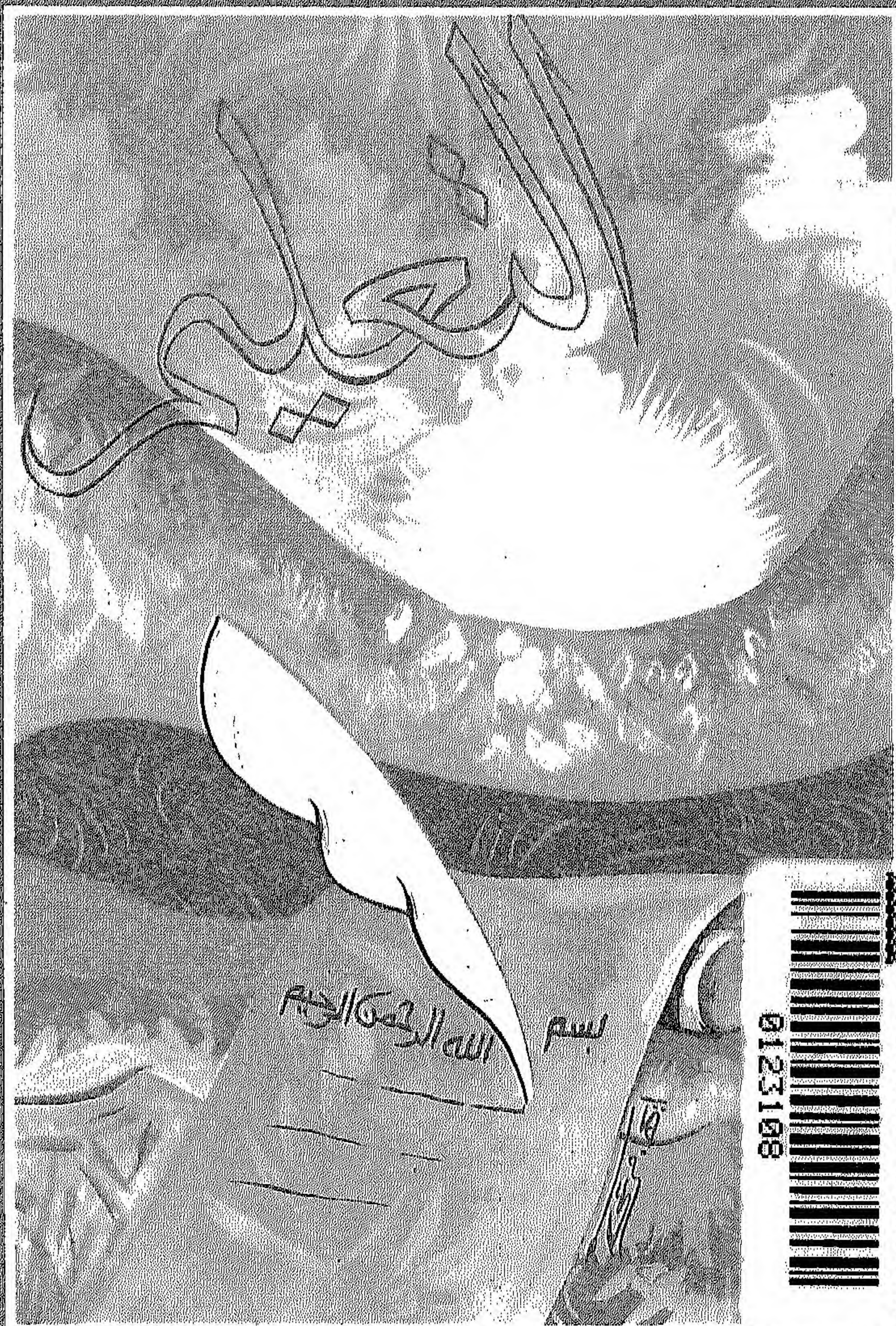


سلسلة رسائل العيون
الرسالة الثانية
رَبَّانِيَّتُ الْبُخْلِيِّ



عبد الوهيد يوسف



ربانية التعليم

حقوق الطبع محفوظة

1417 هـ - 1997 م

- * الكتاب : ربانية التعليم .
- * الكاتب : الشيخ / عبد الله بوسف الحسن .
- * الطبعة : الثالثة .
- * الناشر : دار البشير للثقافة والعلوم طنطا .
- * التوزيع : دار البشير طنطا أمام كلية التربية النوعية
☎ 322404 - 356663 فاكس 228277
- * التجهيز الفني : شركة الندى للتجهيزات الفنية
المحلة الكبرى ص . ب / 265
- * الإيداع القانوني : 1994/2450 م
- * الترقيم الدولي : x - 78 - 5065 - 977 I S . B . N

سلسلة رسائل العيين

رَبَّانِيَّةُ الْعِلْمِ

عبد الله يوسف الحسن

هذه العين

دقّاقة ، صافية .. هي عيننا ..

كلُّ معنى جميل ، وكلُّ إشارة خير .. حواها لفظ « العين »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ..
ومن ثمّ ، تفاؤلا : كانت هذه العين ...

لعيننا شبيه بماء العيون ، فإن رسائلها ترزى قلوبنا قد يعثر بها
الجفاف ، فتنتعش بعد ظمأ وتسقي سناحات العمل ، فتنشط وتنتج
ولماء العيون صفاء ، ويتفجر رقايا غير ملوث ، وعين الفكر
هذه تأتيك بصفاء مصادر الإسلام الأصيلة ، غير مشوبة بفكر
أرضي أو حثالة بدعية .

والعين : نبيل القوم ، ومقدمهم ، وشريفهم ، وإنما تصدر هذه
العين لنبلاء الدعاء ، ومن هم مظنة الفضل والعقل .

والعين : الذهب ، وكل معدن نفيس ثمين ، وأجود كل شيء
وأحسنه وخياره ، وهي كذلك مباحث هذه العين واجتهاداتها ،
وسيبقى فقه الدعوة هو الأنفس ، والحوار فيه هو الأثمن .

ثم هي عينك الباصرة ، تنظر بها واقعك ، فتحلل وتصف
وتعلل ، وتعرف بها الدرب فتقتحم ، أو تكون الدليل ..

والعين : الرقيب ، والرائد ، والطليلة ، فهي عينك على
الخصم تجس لك تحركه وسوء نيته .

ولها أيضا مع عين الخليل بن أحمد الفراهيدي نسب ، فكما
أراد أبواب معجمه مفاصل لتوزيع المعاني أو التقاطها عبر
تشكيلات الحروف : ستكون أبواب هذه العين ناشرة لحسان
المعاني ، جامعة لشتات الاجتهادات الجزئية ، من أجل وعي
إسلامي ، عبر لغة فقهية تعلم الفصاحة كل داعية خليل .

ومن معاني العين : المال ، والجماعة ، والشمس ، والجديد ،
والحديدة في رأس آلة الحراثة ، كل ذلك وما قبله في لسان العرب
قد بينه ابن منظور وكذلك أفكار عيننا ، هي أغلى مال يتموله
داعية ، من خلال اجتهاد جماعي واضح وضوح الشمس يستنبط
من التراث القديم بنظرة جديدة في غير ما تقليد جامد ، ويعلم
الدعاة طريق الجهاد بآلة الحديد .

كل ذلك لنا ، ثم نطمع بمزيد ، من رب كريم ، نرجوه أن
يقسم لنا حظاً مهما كان صغيراً من وعده للكريم عليه السلام
﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ... ﴿ وَلَتَصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي ﴾ .

فامض راشداً مع رسائل العين التي ستبلغ المائة إن شاء الله ،
 واجمعها يجتمع لك فقه الدعوة ،

وإنه لنعم الزاد للماشي في درب الإيمان .

﴿ عِيُونُ الْأَعْيَانِ ﴾

إن دعاة الإسلام هم أعيان الجيل الحاضر ، لا جدال ، بما
وُهبوا من همة تحرص على الإصلاح ، وتجرّد يعيد ضرب المثال .

ولهم تصدر هذه السلسلة ...

فلهم مع كل إشراقة جديدة تحية

إن هدف « رسائل العين » يتركز في كشف الآفاق الرحبة
لفقه الدعوة ، وتجارب العمل الإسلامي ، وأنماط معاناة المربين ،
ووضع كل ذلك بين يدي شباب الصحوة الإسلامية ، تعليماً لهم
وتمكيناً .

لكن الأبعاد الحضارية مكملة لكل ذلك ، لأننا نعيش حياة
الانفتاح من جهة ، ونواجه حضارة مغايرة تتدسّس بهدوء ولباقة
أو تجاهر بالغزو ، من جهة أخرى ، فكان لابد للداعية المسلم أن
يسعى نحو الثقافة الشمولية ، وأنواع العلوم والفنون . ليعلو فوق
التيار ، مسيطراً مهيمناً ، وكان على هذه السلسلة أن ترافقه في
دربه الحضاري هذا ، تعين وتكشف له ، وتنبئ الخبر ، ووكيلها
في ذلك : محمد أحمد الراشد ، ينتقي ويختار ، إن لم يكتب
ويعقب ، ومعه على قدم سواء : الدكتور عبد الله يوسف الحسن ،
يكتب وينقح ويطور ويوسع الدوائر .

على أن الاستقصاء في إيراد كلام الفقهاء ومراجع نصوصهم ليس من وسيلة هذه الرسائل ، وإنما هو الاستئناس والتبرك بأقوال السلف ، ولا يرى أن يلزمنا داعية ما ألزمته الجامعات أصحاب البحوث ، وإنما تهتم نحن بالتعليل والقياس والتأويل ، مما يوجب على الممارس التأمل في عقباتنا على ضوء واقع العمل الإسلامي وأن يترك المعاني التي بذهبت إليها من خلال الإشارات والمجاز .

فقرر أن تكون حسن المطالعة والاستيعاب ، بمقابل ما ترجمه منا من حسن الكتابة والاختيار ، وكرر المطالعة : يؤذن لك بمريد فهم ، وقدم نسخاً أخرى من هذه الرسائل هدية إلى إخوانك : تنتشر الفوائد ، ويروج مذهبك في الإصلاح ، ويقتنع بمثل قناعاتك عدد أوفر ، فتكون النتيجة أقرب :

ثم سبح معنار بآيها دياً ونصيراً .

ربانية التعليم



إن (ربانية التعليم) أحد أهم المفاهيم التربوية في عملية التدريس عموماً ، وفي مجال التعليم والتربية الدعوية بشكل خاص ويعنى هذا المفهوم أن عملية التعليم يجب أن تكون بحكمة ، وتتضمن التدرج فى تدريس صلب العلم قبل فروعه ، ولا يقوم بهذا العمل إلا الفقهاء الحكماء .. والمربون الوعاة .

وربانية التعليم لا تتم بتبليغ الفقه المجرد فقط ، وإنما باتخاذ الوسائل الحكيمة ، ووفق أفضلها أيضاً ، ومنها : إعطاء صغار العلم قبل كبارهم ، وقد أخذ هذا المعنى التربوى اسمه من أحد معانيه الخاصة الواردة فى قول ابن عباس - رضى الله عنه - كما فى كتاب العلم من صحيح البخارى :
(كونوا ربانيين حكماء فقهاء .

ويقال : الرباني الذى يُربي بصغار العلم قبل كبارهم) .

وصفة الربانية قد تكون نسبة إلى (الرب) عز وجل أو إلى (التربية) . وإطلاقها على هذا المفهوم التربوي من باب إطلاق الخاص على العام .

وقد سبق الإسلام - بهذا الإدراك الواعي - أحد أهم مسائل وأسس التربية المعاصرة .

ألا ترى أن المناهج في المراحل الدراسية المتعددة يسبق بعضها بعضاً ، والمساقات الجامعية يبنى بعضها على بعض ، ولا يسبق تدريس بعض الأجزاء أجزاء أخرى ! فكل فن ترتبط أجزاؤه وفق نسق منطقي . والعلم بشموليته : تتسق فنونه بعضها ببعض ، بحيث لا يتقدم المبهم الدقيق على الواضح السهل . ولا النتيجة على المقدمة ، ولا الأهم على المهم . ولا يتقدم صعب على سهل ، وغير ذلك ، وقد أوضح ابن حجر شمولية معنى صغار العلم وكباره فقال : (والمراد بصغار العلم ما وضع من مسائله . وبكباره ما دق منها . وقيل : يعلمهم جزئياته قبل كلياته ، أو فروعه قبل أصوله ، أو مقدماته قبل مقاصده)^(١) .

إن الذي يحدد إلى توضيح هذا المعنى التربوي في مجال العمل الإسلامي الدعوي - رغم معرفته في عالم التدريس والتربية المنهجية - هو ما يظهر أحياناً من محاولة بعض الدعاة والمربين أو الخطباء تزويد الناشئة أو من هم دون المستويات الملائمة بكمية هائلة من المعلومات الشرعية أو الدعوية . أو اختيار ما لا يناسبهم من

(١) فتح الباري ١ / ١٦٢ .

ناحية المعاني ، وقد يكون الأمر في غالب الأحوال رغبة المربين بالحصول السريع على طبقة متقدمة من الدعاة ، أو تبليغ أكبر كمية من المعلومات بأقصر الطرق ، وقد تكون - في أحيان قليلة كما نرجوا - بسبب حب المربي لنوع من الواجهة والرئاسة ، فيحب الظهور بمظهر العالم المتمكن ، أو لأجل مباهاة الأقران ، فيسارع إلى تبليغ المعلومات الوافرة والمتقدمة .

كما أن الناشئة أو طبقات الدعاة المختلفة هي الأخرى تتطلع إلى الاستزادة من كثرة المعلومات والتشوق إليها دون الاستفادة العميقة منها ، أو دون امتلاك الاستعداد الكافي لهضمها وإدراكها وتشوفهم - بتجاوز العلوم الأساسية - لمعرفة غيرها من شوارد المعرفة ، أو خصوصيات المسائل ، وقد يكون الدافع لهؤلاء - في بعض الأحيان - إخلاصهم للدعوة ومحاولة الارتقاء السريع بمستواهم ، كما قد يكون أيضاً - في أحيان أخرى - محاولة منهم للاستشراف الشخصي للتصدر ، أو حباً في الاستطلاع الفكري ، أو طمعاً في التدخل بما لا يعنيه من أجل إشباع غريزة التطلع .

وقد لا يقتصر الأمر على الشيوخ والمربين من جهة ، أو الجدد وطبقات الدعاة من جهة أخرى بل قد يتجاوز الأمر للحديث بكبار العلم ومهماته - أحياناً - إلى المجالات العامة ، والمنتديات المفتوحة وأمام جماهير المسلمين ، بل وخارج إطار العاملين للإسلام .

إن الالتزام بهذا المفهوم يجب أن يكون واضحاً ، ومقرراً
وسط الجماعة المؤمنة ، فهو ليس كتماً للعلم ، ولا محاولة للتمييز
بين طبقات الدعاة ، وما هو بالاستعلاء على الناس ، بل هو منهج
رباني يخدم المصلحة الدعوية ويقي من لأواء الفتن ، ومصارع المحن
ويحقق قواعد الاستقرار الإداري للجماعات الإسلامية .

ولابد من التوضيح هنا أن ما نقله ابن حجر في كلامه السابق
حول (الفروع قبل الأصول) ليست على إطلاقها ولهذا فسوف
توضح فيما بعد إن شاء الله تعالى .



مبررات ربانية التعليم

قبل الشروع بالشرح التفصيلي لمسائل ربانية التعليم ، نوضح أهم مبررات هذا المفهوم :

من أجل عدم الوقوع في المفسدة لقصر الفهم :

وقد امتنع الرسول ﷺ عن هدم الكعبة ثم بنائها حتى لا تظن قريش أنه بناها لينفرد بالفخر عليهم ، فترك المصلحة خوفاً من الوقوع في المفسدة ، واعتبر حديثه - هذان من أعمدة أدلة الموازنة بين المصالح ، واستنبط منه البخاري مفهوم ربانية التعليم ، ولا بد من ضرورة منع بعض العلم خوفاً من الوقوع بما هو أشد لقصور الفهم عن ذلك .

فترجم البخاري لحديث (عدم هدم الكعبة ثم بنائها) بقوله (باب : من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه)^(١) .

(١) فتح الباري ١ / ٢٢٤ .

عدم إضاعة العلم :

إذا أن كل فن له أرائل تقود إلى أواخره ، ولهذا فلا بد من أخذ الأوائل قبل الأواخر ، والفروع قبل الأصول ، وذلك في العلم الواحد ، والفن الواحد ، إذا ما كانت كل من الفروع والأصول على مستوى واحد من صعوبة الفهم ، وعلى درجة واحدة من الأهمية ، أما عكس العملية فيقود إلى إضاعة العلم .

(... واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها ، ومداخل تفضى إلى حقائقها ، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها ، لينتهي إلى أواخرها ، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها ، ولا يطلب الآخر قبل الأول ، ولا الحقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخر ، ولا يعرف الحقيقة ، لأن البناء على غير أسس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى)^(١) .

أما إذا كانت الأصول أهم من الفروع فالابتداء بها أولى ، كأمر العقيدة وصفات الخالق وأسمائه ، فهي أولى من إدراك مسائل الفقه وأمر الخلاف ، وكذلك إذا كانت أصول فن ما أسهل من فروعها ، فالابتداء بها أجدى وأنفع ثم ينتقل إلى التفاصيل الأصعب بعد ذلك .

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي / ٥٥ .

وبذلك يُتحوّل - في بعض الأحوال - إلى ضرورة الأخذ
بالأصول قبل الفروع ، وفي كل من الحالتين يكون الاستبدال
إضاعة للعلم ، وتجاوزاً لمفهوم الربانية ... وسيأتي مزيد من إيضاح
لذلك .

عدم التنغير من العلم والتخبط به :

ولهذا المعنى أشار الغزالي ، واعتبرها من وظائف المربي والمعلم
فحدد ذلك بقوله : (.... أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا
يلقي إليه مالا يبلغه عقله ، فينفره ، أو يخبط عليه عقله ... ولذلك
قيل : كلُّ لكل عبدٍ بمعيار عقله ، ورن له بميزان فهمه ، حتى تسلم
منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار)^(١) .

إذ أن طالب العلم إذا ما أخذ علماً لا يستوعبه ، أو أن حدود
تجاربه الحيوية وطبيعته النفسية لا تستطيع إدراكه فإنه يؤدي به إلى
عدم توازنه ، بل وإلى انحرافه ، ولذلك فإن الفلسفة والمناظرات
الكلامية أو بعض أمور المنطق قادت بعض طلبة العلم إلى الشطط ،
بل إلى الانحراف عندما لم يتم بناؤهم الفكري ولم يستكملوا علم
الشرع ، كما حصل لأمثال ابن سينا وابن رشد ، مما اضطر بعض
العلماء - لوجود هذه الظاهرة - إلى تحريم دراسة المنطق ، كابن

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٥٧ .

الصلاح وغيره ، بينما صار المنطق والكلام سلاحاً ضد أعداء الإسلام بيد جهابذة العلماء كابن تيمية والغزالي - رحمهما الله تعالى - ، ولذلك فقد يكون في معرفة القليل من الجاهلية انحراف أو ضلال ، وفي معرفة الكثير منها - عند فهم القواعد والأصول - مزيد إيمان و يقين .

عدم الوقوع في الترف الفكري :

إذ أن تعلم المبتدئ جملة من العلوم التي لا يعمل بها ، ولا يستفاد منها ، تجعل منه شخصاً نظرياً ، فتؤدي الظاهرة عند توسعها إلى عيب كبير في صفوف الدعاة ، إذ يتحول الداعية عندئذ إلى أشبه بباحث نظري يبحث في الكتب وحسب ، فيفلسف الأحداث دون استيعاب ، وبالتالي يحصل الفتور في العمل ، والضعف في الإيمان ، وتصبح بضاعته مجموعة من الأحاديث النظرية والمجادلات ، وتكون متعته في المباحث النظرية والمطالعة المجردة ، دون تحمل عبء المشاكل ، ومشقة المخالطة ، ولو ظل على هذا لهان الأمر ، بل قد يتحول الداعية - كما تشهد التجارب - إلى كاتب يبرر الانحراف ، ويفلسف الأخطاء ، ويدافع عن الفتن ، وينقد العمل الجاد ، بل وقد يكبر الأمر الصغير ، ويهون الشأن الكبير ، وكل ذلك لأنه أسير تأملاته النظرية ، وثقافته غير المتوازنة .

الأمان من الخطأ :

فإن كثرة الحديث تورّد كثرة الخطأ والالتباس ، وفي القلة أمان من ذلك (وكثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً) ، وقد قالت العرب (من كثر كلامه كثر سقطه) ، كما أورد مسلم في مقدمة صحيحه قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع) ..

وقد علق الإمام النووي على ذلك بقوله عن هذا الحديث والآثار التي في الباب : (ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان ، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب ، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب ، لإحباره بما لم يكن) .

وكذلك : (إنه إذا حدث بكل ما سمع كثر الخطأ في روايته فترك الاعتماد عليه والأخذ عنه)^(١) .

الابتداع في الدين :

ما دام الأخذ بهذا المفهوم مما نهى عنه الشارع ، فإن عدم الأخذ به من الابتداع في الدين ، لمخالفته الهدي النبوي ، وقد ذكر ذلك الشاطبي ضمن أنواع الابتداع فقال (... ومن ذلك التحديث

(١) شرح صحيح مسلم ١ / ٧٥ .

مع العوام بما لا تفهمه ولا تعقل معناه ، فإنه من باب وضع الحكمة في غير موضعها ، فسامعها إما أن يفهمها على غير وجهها - وهو الغالب - ، وهو فتنة تؤدي إلى التكذيب بالحق ، والعمل بالباطل .
إما لا يفهم منها شيئاً ، وهو أسلم ، ولكن المتحدث لم يعط الحكمة حقها من الصون ، بل صار في المتحدث بها كالعابث بعمدة الله (١)

انفضاض الناس :

إن الإكثار من الحديث ، وما قد يجره من ملل على السامع يجعل الناس تاركين للعلم وراءهم ، وبالتالي يفقد العالم هيئته .
والعلم كمعرض التجارة ، ترداد الرغبة فيها عند القلة ، وليس المقصود حجب الناس عن العلم ، وإنما من أجل زيادة حرصهم عليه حتى لا يكون من كثرته وإشاعته تزهيداً للناس فيه ، وابتعادهم عنه . وفي حكمة لقمان قوله : (إن العالم الحكيم يدعو الناس إلى علمه بالصمت والوقار ، وإن العالم الأخرق يطرد الناس عن علمه بالهذر والإكثار) (٢) .

(١) الاعتصام للشاطبي ١٣ / ٢

(٢) عيون الأخبار ١١٢ / ٢

عدم التوازن بين العلم والعمل :

وليعلم أن عدم التوازن بين العلم والعمل مفسدة أيضاً . وهي كنمو أحد جناحي الطائر وضمور الجناح الآخر ، فيكون الصعود والتحليق إيذاناً بالسقوط من مرتفع أعلى ، فيؤدي إلى احتمالية أكبر في أن يلقي حتفه ويتهشم ، وتدل تجارب الحكماء قديما وحديثا على كراهية عدم التوازن بين المنطق والعقل ، وقد قال — من قبل — سليمان بن عبد الملك : (زيادة منطق على عقل خُدعة ، وزيادة عقل على منطق هُجْنة)^(١) .

بل إن زيادة المنطق ، وحلاوة اللسان ، وعذوبة العلم نهايتهن مريعة إذا لم يزينها عقل ، وتحدها تجارب ، ويدركها عقل واع يحدد مواقع الكلم ، ومواطن اللفظ ، فيختار الحديث المناسب للمجالس المناسبة ، وينتقي أطايب الكلام على قدر الرجال ... وقد قال حكيم العرب الأحنف بن قيس — رحمه الله : — (حتف الرجل مخبوء تحت لسانه)^(٢) .

وحتى يصبح مفهوم الربانية واضحاً ، لا بد من التوسع في ذكر بعض آفاق هذا المفهوم ، وما قد يتضمنه ، من تقديم بعض العلوم على بعض ، أو أجزاء فن ما دون أجزائه الأخرى ، أو تقديم خاصية قبل غيرها ، وما قد يرتبط بتدريس العلم وتعليم المعرفة من أمور ملازمة .

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٢٢ .

(٢) عيون الأعيان ١ / ٣٣٠ / ٣٣١ .

أفاق الربانية

ومن هذه الأفاق :-

(١) الجزئيات قبل الكليات :

والمقصود بهذا ما ورد في كتب الفقه من مسائل يطالب المكلف بفعلها أو تركها ، إيجاباً أو استحباباً ، وقد أوردت الشريعة أدلة تلك المسائل ، ثم جاء العلماء بعد ذلك ، واستنبطوا من هذه الجزئيات مجموعة قواعد كلية قد تتخلف آحاد الجزئيات عنها ، وصارت معرفة هذه الكليات طريقاً لضبط الجزئيات ، ولكنها تظل غير صالحة لقيام التكليف عليها ، فالمسلم مكلف بفروع الشريعة ، وهي التي سيحاسب عليها في الآخرة ، ومعرفتها - إذن - لا بد منها للمكلفين ابتداءً ، أما الكليات فلا بد للعالم من إدراكها وفهمها بعد فهم الجزئيات التي قادت إلى التعقيد كي يمكن له التدرب على الاستنباط ، والقياس ، ثم الاجتهاد في الفروع المستحدثة .

وكذلك فإن الشريعة لها مقدمات لا بد للمكلف من معرفتها والعمل بها ، ثم يحاسب بمقتضاها ، ولكن من خلال الاستقراء لمقدمات الشريعة يتبين أن لها مقاصد وحكماً وعللاً ، وأن الله تعالى يشرع للحكمة وعلة ، والشريعة تحفظ العقل والمال والنفس

وغير ذلك من مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ولكن المكلف يبقى محاسباً على المقدمات دون المقاصد ، ويبقى التكليف مبنياً عليه حتى دون معرفة المقاصد ، بينما تظل معرفة المقاصد جزءاً من علم المجتهد للبناء عليه ، والقياس وفقه ، ثم يكون الاجتهاد وفق مقاصد الشريعة ، وكذلك يمكن للمكلف معرفة المقاصد والعلل زيادة له في يقينه ، وتعميقاً في إدراكه .

ونضرب مثلاً على هذا المنهج أيضاً بأصول الفقه الذي دُونَ كعلم تالٍ للفقه ، فالفقه الحنفى على وجه الخصوص بني جملة وتفصيلاً على فروع الفقه ، فأصبح رغم أصوليته تابعاً للفقه ، وأصول المذاهب الثلاثة الأخرى رغم توسعها وفقاً لمنهج علم الكلام إلا أنها لم تنضج إلا بواسطة تطبيق الفروع الفقهية المستندة على الأدلة ، وبقي الأصول علماً لا بد منه للمجتهدين بينما الفقه علم سائر المكلفين ، وقواعد الفقه ما هي إلا مثل آخر إذ أنه لم يتبلور إلا في القرن السابع ، واستفاد منه العلماء ، ولكن معرفة الفروع تظل سابقة عليه في ضرورة تعلمها كما كانت سابقة عليه زماناً ، رغم أنها تجمع العديد من الفروع ، وتسهل حفظها وإدراكها .

ولهذا فإن المقدمات قبل المقاصد ، والجزئيات قبل الكليات في أمور الشريعة عموماً ، وفي مسائل الفقه خصوصاً ، وكلا

الأمرين داخلان في قاعدة الفروع قبل الأصول . أما فيما سوى ذلك فيما لو كان الأصل صلب العلم والفرع من هوامشه ، أو أن الأصل يبنى عليه الثواب والعقاب ، والفرع تبع له ، فإن القاعدة الأصلية تظل (الأصول قبل الفروع) ، كما ستبينه القاعدة التالية

(٢) الأصول قبل الفروع :

وهذا مبدأ واضح وضروري ، فتعلم أصول الشريعة لابد منه قبل فروعها ، وأرفع الأصول : أصل العقيدة ، كمعرفة الباري تعالى وأسمائه وصفاته ، والإيمان به وبأنبيائه ورسله ، ودون معرفة ذلك فالعمل يصيبه الإحباط ، ولذلك قال السلف : العلم قبل العمل ، وترجم الإمام البخاري لهذا المعنى فقال : (باب : العلم قبل القول والعمل ، لقول الله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء)^(١)

بينما الفقه وفروع الشريعة تبع لذلك ، وكذلك في الفن الواحد ، ففي الفقه مثلاً معرفة ما تصح به العبادة أولى بالمعرفة من سنن العبادات وزوائدها ، وهكذا .

ولهذا نرى بعض الصحابة استشهد في المعارك ، وهم لا يعرفون بعد من جزئيات الشريعة إلا معني (لا إله إلا الله) ، كما

(١) فتح الباري ١ / ١٦٠

أن كلمة التوحيد - كما يحصل في الجهاد - تعصم دم المرء .
وذلك لضرورة تقديم فهم الإيمان إجمالاً ، وبعد دخول الإنسان
في دين الله تعالى ، يبدأ بالاستفصال عن الأحكام التي تتضمنها
كلمة التوحيد .

وحتى في إطار الأدب نجد أن العملية التعليمية تتخذ هذا
المفهوم التربوي ، فلا ينتقل المدرس إلى علم الهوامش وتعليقات
العلماء ، وزوائد الخلان ، ونوادير الظرف حتى يستكمل أصول
العلم والمعارف ، ثم لا بأس عليه من الانتقال .

ونكتفي من ذلك ببعض ما أشار إليه الجاحظ حيث يقول :
(ولا تلتمس الفروع إلا بعد إحكام الأصول ، ولا تنظر في
الطرف والغرائب ، وتؤثر رواية الملح والنوادير ، وكل ما خفَّ على
قلوب الفُراغ وراق أسماع الأغمار إلا بعد إقامة الحدود ، والبصر
بما يثلم من ذلك العمود ، فإن بعض من كلف برواية الأشعار بدأ
برواية أشعار هذيل قبل رواية شعر عباس بن الأحنف .. وناس من
أصحاب الفتيا نظروا في العين والدين قبل أن يرووا الاختلاف في
طلاق السنة)^(١) .

والعمود من علم الشريعة ما كان المكلف محتاجاً إليه بذاته ،

(١) البرصان والعرجان للجاحظ / ٣ .

ثم ما يحتاج إليه الناس ، في عقيدتهم أولاً ثم عباداتهم ثم ما
يصحح أمور معاشهم ، ثم الانتقال إلى العادات ، ثم يزيد في
معرفته ما يشاء من زيادة في دليل ، أو تحقيق لمسألة ، أو إكثار
لموارد خبر .

وما ينطبق في المجال النظري ينطبق على السلوك أيضاً ، فمن
الدعاة من يطيع في صغار الأمور دون كبارها ، أو ما اعتاد عليه
دون ذي الكلفة ، أو ما يتناسق مع الهوى دون ما يغلبه الهوى .
وقد قال ابن الجوزي - رحمه الله - : (رأيت كثيراً من الناس
يتحرزون من رشاش النجاسة ولا يتحاشون عن غيبة ، ويكثرون
من الصدقة ولا يبالون بمعاملات الربا ويتعجلون بالليل ويؤخرون
الفريضة عن الوقت ، في أشياء يطول عدها من حفظ فروع
وتضييع أصول . فإله الله في تضييع الأصول ، ومن إهمال سرح
الهوى ، فإنه من أهملت ما شئتُه نفشتُ في زروع التقى)^(١)

وللتمييز بين قاعدتي (الأصول قبل الفروع) ، وما سلف
ذكره من أحوال استثنائية : أنه في الفن الواحد ، وعند تساوي
أصوله وفروعه في الفهم ، تكون الفروع قبل الأصول ، ويمكن
الاستشهاد بقاعدة شرعية يسهل استقراؤها في الكثير من الشرائع
والفرائض والتوجيهات القرآنية ، ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه

(١) صد الخاطر / ١٥٦ .

الله - عند الحديث عن التدرج في تحريم الخمر بقوله (عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني ، اي بمسألة اعتقادية . فإن الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللحظة الأولى .. ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعادة وتقليد ، أو بوضع اجتماعي معقد ، فإن الإسلام يترىث به ، يأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ويهيئ الظروف الواقعية التي تيسر التنفيذ والطاعة .

فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك ، أمضى أمره منذ اللحظة الأولى ، في ضربة حازمة جازمة ، لا تردد فيها ولا تلفت ، ولا مجاملة فيها ولا مساومة ، ولا لقاء في منتصف الطريق ، لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور ، لا يصلح بدونها إيمان ، ولا يقام إسلام^(١) .
وتطبيقاً لهذا المبدأ فإن تعلم العقيدة قبل الفقه لا بد منه ، وأصول الشريعة كالقرآن والحديث ، قبل فروع الخلاف والتوسع الفقهي ، كما أن القاعدة تنطبق في الفن الواحد ، فقراءة القرآن وتلاوته قبل معرفة تفسيره وتفسيره العام قبل الغوص بدقائقه ، والغوص بدقائقه النافعة قبل الخوض بالمتشابهات . أما في الحديث

(١) في ظلال القرآن ١ / ٢٢٩ .

فمعرفة الصحيح قبل الحسن ، والحسن قبل الخوض بمعرفة الضعيف
ومعرفة متون الأحاديث الصحيحة والاطلاع على شروح
البخاري ومسلم أولى من الانشغال بطرق الجرح والتعديل ،
وتخريج الأسانيد ، وتعلم الفروض في الفقه أولى من دراسة السنن
وأبواب الصلاة والزكاة مقدمة على معرفة الوكالة والشركة .

ويتبقى على الداعية معرفة أن ما تسلم به العقيدة ، وتصح به
العبادة ، وقواعد الدعوة إلى الله تعالى : مقدم على الثقافة العامة
وحديث السياسة ، ولا بد كذلك من التذكير أن بعض هذه العلوم
قد تتغير أفضليتها من شخص لآخر ، أو في زمان دون غيره ،
فالداعية التاجر يكون تعلم الزكاة وقواعدها أوجب عليه من غيره
وتعلم قواعد الجهاد لداعية يمارسه مقدم على علوم أخرى ، وتعلم
الداعية الرد على الشيوعية في بلاد تناطح الشيوعية فيها الحركة
الإسلامية مقدم على غيرها ، بينما تكون دراسة الشيوعية في مكان
آخر ضرباً من الترف الفكري ، وهكذا

(٣) العلوم الشرعية بالنسبة لغيرها من كبار العلم :

وما عدا علوم الشرع فهي من صغاره ، فما كان من الكتاب
والسنة والإجماع فهو علم مقطوع به أنه من الحق ، وهو الذي
عليه الثواب والعقاب ، وهو ما أراد الله تبليغه لعباده ، وأرسل

لأجل هذا التبليغ رسوله به وأنزل كتابه ، وفي مقابل ذلك علوم مختلفة مما في أيدي أهل الكتاب ، وما روي عن الأوائل من المتفلسفة ونحوهم ، وما دلت عليه الأقيسة العقلية ، وما قاله أكابر هذه الأمة ، علماؤها وأمرؤها . وكذلك تتضمن الأقيسة العقلية الشرعية ، وما ينقدح في عقول البشر . كل ذلك فيه الحق والباطل فلا يرد كله ولا يقبل كله ، بل يقبل منه ما وافق الحق ، ويرد منه ما فيه من الباطل .

وبهذا الميزان تصبح كل هذه العلوم من صغار العلم مقارنة بعلوم الشريعة القطعية التي يجب تقديمها ، وذلك : (أن الحق الذي لا باطل فيه هو ما جاءت به الرسل عن الله ، وذلك في حقنا ويعرف بالكتاب والسنة والإجماع ، وأما ما لم تجيء به الرسل عن الله ، أو جاءت به ولكن ليس لنا طريق موصلة إلى العلم به ، ففيه الحق والباطل ، فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع : للكتاب والسنة والإجماع ، فإن هذا حق لا باطل فيه ، واجب الاتباع لا يجوز تركه بحال) (١) .

بل وحتى العلوم الشرعية لها منازل ومراتب ، ولا يستقل

(١) فتاوى ابن تيمية ١٩ / ٥ .

من علم إلى آخر إلا باستكمالها ، فقد قال أحدهم لمؤدب ولده : (لا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن اصطكاك العلم في السمع وازدحامه في الوهم : مضلة للفهم) (١)

(٢) صلب العلم قبل ملكه :

فكل علم أو فن له صلب ، وله مَلَح ، ويتميز أحدهما عن الآخر بأن صلب العلم يمتاز بثلاثة خصائص :

الأولى : هي العموم والاطراد .

والثانية : هي الثبوت في غير زوال .

والثالثة : كون العلم حاكماً لا محكوماً عليه ، بمعنى كونه مفيداً لعمل يترتب عليه مما يليق به .

(والقسم الأول هو الأصل والمعتمد والذي عليه مدار الطلب ، وإليه تنتهي مقاصد الراسخين ، وذلك ما كان قطعياً أو راجعاً إلى أصل قطعي ، والشرعية المباركة المحمدية منزلة على هذا الوجه ، ولذلك كانت محفوظة في أصولها وفروعها .. وأيضاً فإن الكليات العقلية مقتبسة من الوجود ، وهو أمر وضعي لا عقلي ، فاستوت

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٦٧ .

مع الكليات الشرعية بهذا الاعتبار ، وارتفع الفرق بينهما .. (١) .
وهذا مظهر آخر من تقدم الأصول على الفروع ، بل إن
الشرعية نفسها بتكاليفها ليست على نمط واحد ، فقد وجد
بالاستقراء أنها على ثلاثة أنواع : ضرورية وحاجية وتكميلية ، ولا
ينتقل من إحداها إلى الأخرى إلا بعد استكمالها ، وكل تكليف قد
يكون مداره على التقسيمات الثلاثة .

(٥) الواضح قبل الغامض :

ومن معاني الربانية أن الواضح من المسائل مقدمة على الغامض
منها ، وهذا معنى قول ابن حجر : إن المراد (بصغار العلم ما وضح
من مسائله ، وبكباره ما دق منها) ، إذا إن من المعلوم أن في كل علم
جوانب واضحة يسهل فهمها وفيه ما قد يصعب فهمه ، أو يحيطه
شيء من الغموض ، فيكون الواضح أولى بالتعلم من غيره

والأصل في المفتي والكاتب والداعية والخطيب إبلاغ العلم
لأهله على هذا المنوال ، فلا يجوز للمفتي - عند ابن القيم -
(تخيير السائل ، وإلقاؤه في الإشكال والحيرة ، بل عليه أن يبين بياناً
مزيلاً للإشكال ، متضمناً لفصل الخطاب ، كافياً في حصول المقصود ،

(١) الموافقات للشاطبي ١ / ٧٧ ، ويعنى باقتباسها من الوجود : أنها من حقائق الحياة
وظواهرها العامة المطردة التي تعرف بالاستقراء والتجربة وليس بالتأمل فقط .

لا يحتاج معه إلى غيره (١) .

ويقاس على المفتي غيره من أهل التربية والتعليم .

وقد ورد في النصوص نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الأغلوطات ، وهي الألفاظ الملتوية ، وهذا الدليل ، وإن لم يكن مباشراً إلا أن الإمام الأوزاعي - رحمه الله - أخذ هذا المعنى المراد من الحديث ... فقال مفسراً : (يعني صعاب المسائل) (٢) .

وكما أن الأمر ينطبق على المعاني ، فهو أيضاً ينطبق على الألفاظ ، فاختيار الواضح منها أولى من اختيار الغامض ، والبلاغة الحقة في اختيار المفهوم ، وترك المعقد ، فالبيان في بعض ما قيل عنه : (أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويحكي عن مغزاك ، وتخرجه من الشرقة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذي لا بد منه أن يكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل) (٣) .

ومما يتفرع عن ذلك كراهية التقعر في الكلام ، والبعد عن بسيط القول والسهل المفهوم من الكلام ، والأجدي اختيار أقصر الطرق ، وأسهل الأساليب التي يفهمها المخاطب ، ويدرك كنهها ، دون أن يؤدي به ذلك إلى عدم الفهم ، أو تحميل المعاني غير ما تحمل

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢٢٨ .

(٢) عيون الأخبار ٢ / ١١٧ / ١٧٣ / ١١٨ .

(٣) عيون الأخبار ٢ / ١١٧ / ١٧٣ / ١١٨ .

(٦) المرونة في الأخذ والعطاء :

فمهما بلغ العلم من العلم فإنه لا يستطيع إدراك كل أمر ، فما أكثر ما سقط جهابذة العلماء في نسيان أمر بسيط ، وقد قال عمر رضي الله عنه : لا أعلم ما الأب ؟ لما قرأ (وفاكهة وأبا) ، وأنكرت عائشة رضي الله عنها روايات بعض الصحابة ، كما أنها نفسها استدركت على كثير من الصحابة أخطاءهم ، وكأنه سر من أسرار الله تعالى ليثبت العصمة فقط لأنبيائه ، ولكي يظل العلم أخذاً وعطاءً ، ولا بد فيه من التدريس لأجل التعلم ، كما أنه لا بد من طلب السؤال والاستيضاح كي يتبين الخلل ، ويسد النقص ، ويدفع غرور المتحدث ، ويشارك الآخرين بالرأي .

قال الأصمعي عن إدراكه للعلم ، وكيف تم له ذلك (بلسان سؤال ، وقلب عقول ، وكنت إذا لقيت عالماً أخذت منه وأعطيته) (١) .

(٧) التدرج :

وهذا يقتضي الترتيب بين أجزاء الفن الواحد من العلم ، أو بين الفنون المختلفة من العلم ، والقفز دون مراعاة الترتيب يضيع العلم ، ويعثر الجهد ، وليكن القصد تحري الترقى باستمرار .

(١) عيون الأخبار ٢ / ١١٨ .

(فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً ، وبعضها طريق إلى بعض ،
والموفق من راعى ذلك الترتيب و التدريج) (١) .

وهنا موازنة لا بد من ذكرها ، وهي أن لا يعكف المتعلم على
إتقان فن من فنون العلم بحيث يحيط بكل جوانبه ومسائله وفروعه
فإن العمر لا يتسع لكل ذلك ، بل إن العمر لا يكفي أحياناً
لاستجماع علم واحد فقط ، ولكن المقصود أخذ قواعد كل فن ،
وأحسن ما فيه ، ومناهجه العامة ، حتى لا يضيع غيره ، ولذلك قيل
فى وصايا المتعلم : (أن لا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة ، بل
يراعى الترتيب ويبدأ بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع
العلوم غالباً ، فالخزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه) (٢) .

والتدرج فى العلم مظهر من مظاهر التيسير ، والتبشير ، وقد
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما فى كتاب العلم من
صحيح البخاري : « يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا » .

وقال ابن حجر معقياً : (.) وكذا تعليم العلم يجب أن
يكون بالتدرج ، لأن الشيء إذا كان ابتداءً سهلاً حبيب إلى من
يدخل فيه ، وتلقاه بانسباط وكانت عاقبته غالباً الازدیاد ، بخلاف
ضده) (٣) .

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٥٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٥٢ .

(٣) فتح الباری ١ / ١٦٣ .

ومن فروع التدرج التدرج مع تأميدك : (أن تناوله المعلومات
وتكسبه الصفات بتدرج ، وحسب أهمية بعضها الملائمة ، شرعاً
ومصلحة أو أهميتها المرحلية ، أو أهميتها النسبية الملائمة من
طبيعة تربيته السابقة قبل أن يبدأ رحلته معك ، من باب الأهم ،
فالأقل أهمية ...) (١) .

وكذلك يجب أن تغرس الموازين الأساسية في تربيته
الجزئية ، أو المعلومات التكميلية وعلى تربيتها الدعوية (أن تهدر
الجزئيات والتفاصيل وتعني بغرس الموازين الإسلامية وفق أفكار
شرعية صافية بعيدة عن أطوار التفكير الجاهل ، والعربي
خصوصاً ، ولا يضير بعد ذلك أن يكون التأصيل مبدئياً
لصفات أخلاقية إسلامية تكميلية ، أو مهمات أساسية ثانية ، أو
أعراف إدارية ثانوية) (٢) .

ومظاهر التدرج هذه مطلوبة في طلب العلوم الشرعية
والدنيوية ، كما أنها مطلوبة في الفقه الدعوي ، وبالتالي فإن معرفة
صفات الخالق وأسمائه ومعرفة توحيد الربوبية والألوهية أو أي من
الخوض في الخلافات الكلامية ، ومناهج علماء الكلام ، والردود
على أهل البدع ، وكذلك معرفة علم التوحيد يجب أن تسبق

(١) من رسالة تذكرة المربي .

(٢) من رسالة تذكرة المربي .

معرفة علم الفقه ، والجد في فهم القرآن وقراءة الحديث مقدمة على أصول الفقه والخلاف .

واستغرب ابن الجوزي كيف أضاع بعض العلماء أعمارهم في تفويت علوم مهمة نتيجة لانشغالهم بعلم واحد ، طمعاً في استكمالهِ وتحصيل كل فروعه ، فأدى ذلك إلى تضييع بقية العلوم ، دون الحصول على فائدة العلم الواحد ، إذ إن بين العلوم تداخلاً ، ولا تؤتي الثمرة إلا بفهم القليل من كل علم ، ثم لا بأس من الاستكثار من أحدها أو بعضها .

(اعلم أنه لو اتسع العمر لم أمتنع من الإيغال في كل علم إلى منتهاه ، غير أن العمر قصير ، والعلم كثير .. فالتشاغل بغير ما صح يمنع التشاغل بما هو أهم ولما تشاغل يحيى بن معين فساته من الفقه الكثير ومن أقبح الأشياء أن تجري حادثة يسأل عنها شيخ قد كتب الحديث ستين سنة فلا يعرف حكم الله عز وجل فيها) (١) .

فانظر نقد ابن الجوزي ليحيى بن معين على غزارة علمه في الحديث ، وفضله ، ولكنه مع علمه الحديثي في الرجال غابت عنه بعض مسائل الفقه البسيطة ، بل - ورغم علمه - لم يدرك ما وصل إليه أقرانه كالإمام أحمد وغيره رحمهم الله تعالى .

(١) صيد الخاطر / ٢٦٦ .

(٨) المتفق قبل المفترق :

أن يكون التعليم للمسائل المتفق عليها ولا يخوض في مسائل الاختلاف ، فالاختلاف للمتعلم مفسدة ، وإضاعة لأصل مقاصد التعليم ، كما وأنه يربك عملية التفكير ، إضافة إلى ما قد يؤدي إلى إضاعة الدين وحفظ أصول الشريعة ، لما في الأمر من ضياع في متاهة الجدول ولذلك قيل : (أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ما نحاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة . فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع)^(١)

ولا يعنى ذلك تقليل أهمية علم الفقه المقارن ومعرفة أسباب اختلاف الفقهاء ، فإن هذا العلم من الأهمية بمكان ، وهو العدة الرئيسة لمن يطلب الاجتهاد ، أو لمن يطلب جمع صحاح المسائل وجيد الإفتاء إذا عزم على التحرر من ضيق التقليد المذهبي ، ولكن الكراهة تنصرف إلى تقديم الأشتغال بذلك والتهاء من لازال في مدارج البداية بمثل هذا الاختلاف ، فإنه يشتت فكره ويوهمه أوهاماً يليق به أن يكون عنها بمعزل .

وما ينطبق على الفقه ، ينطبق على العمل التربوي أيضاً ، وقد أورد ابن القيم هذا المعنى تمييزاً بين المتكلم والسالك إلى الله :

(١) إحياء علوم الدين ١ / ١٥ .

(فترى المتكلم يبحث في الزمان والمكان والجواهر والأعراض والأمكن ... والسالك إلى الله قد تجاوزها إلى جمع القلب على ربه المكون وعبوديته بمقتضى أسمائه وصفاته ... فالتكلم متفرق مشتغل في معرفة حقيقة الزمان والمكان ، والعارف قد شح بالزمان والمكان إن يذهب ضائعاً في غير السير إلى رب الزمان والمكان) (١) .

فعلى المربي والمعلم مراعاة ذلك ، وأن لا يسمح لإخوانه بالقفز في سلم المعرفة : (وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلى ..) (٢) .

فهذا الواجب منصب على المربي والمعلم قبل التلميذ الطارئ على طلب العلم والذي قد لا يدرك المفسدة في ذلك ، لذلك فالتقصير في تدريس العلم وفق مراتبه مما ينقد عليه العلماء ، ولذلك انتقد السلف بعض العلماء وقالوا عنهم :

(أبحثُ الناس عن صغير ، وأتركهم لكبير) .

(أعلم الناس بما لم يكن ، وأجهلهم بما كان) .

(١) مدارج السالكين ٢ / ٣٤٩ .

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٥١ .

وقد تكون هذه الصفات من خصائص علماء الدنيا ، الذين يطلبون بتدريس العلم الشهرة والرئاسة .

ويتضمن هذا المعنى أيضاً عدم تتبع شوارذ المسائل ، أو ما لا طائل وراءه وقد قال ابن القيم : (من تتبع غرائب المسائل ، لم يصب من الخير شيئاً) .

(٩) التخصيص :

ومن معانى الربانية في التعليم تخصيص قوم دون قوم بنوع من العلم ، وذلك لاختلاف المفاهيم والمدارك ، والتجارب والممارسات ، مما قد يؤدي إلى الفهم الخاطئ أحياناً من قبل البعض عند استماعهم أو قراءتهم لعلم دون مداركهم . أو أن يقود إلى تأويل واه ، أو تفسير باطل ، بل قد يؤدي إلى تحميل الكلام أكثر مما يحتمله ، والبناء على الألفاظ أكثر مما تطيق ، وفي حالات أخرى قد يكون ظاهر الحديث أو المقال يقوى على بدعة أو يقود إلى معصية بينما ظاهره في الأصل غير مراد ، ولذلك ورد عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جملة أحاديث يُستنبط منها هذا المعنى ... ومنها قوله لمعاذ « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل

الجنة ، قال : ألا أبشركم الناس ؟ قال : لا ، إني أخاف أن يتكلموا » (١)

وقد استشهدوا البخاري ، المعنى المطلوب فترجم لهذه الأحاديث في كتاب العلم من صحيحه بقوله : (من خصّ بالعلم قوماً دون قوم ؟ راهية أن لا يفهموا . وقال علي : حدثوا الناس بما يعرفون ، أتمون ، أن يكتب الله لرسوله ؟) .

وقال الإمام مسلم في مقدمة صحيحه ، واعتبرها كقاعدة في منهجه : (فأما إمام الناس الذين هم بخلاف معاني الخاص من أهل الثقة والمعرفة فلا يعني لهم في طلب الكثير ، وقد عجزوا عن معرفة القليل) .

وفي إطار العمل الإسلامي يضطر المربي أحياناً أو المعلم - انطلاقاً من هذا المفهوم التربوي - أن يخصص أفراداً دون غيرهم ببعض الأحاديث أو الكلام ، وليس ذلك تضعيفاً لهم أو عدم الثقة بهم ، أو حجبهم عن خير كثير ، أو حرمانهم من فضل العلم ، ولكن منعاً لسوء فهم ، أو إدخالهم في فتنة ، أو أن يكون العلم بحاجة إلى مقدمات أخرى ، بل قد يكون الغرض أحياناً من منع بعض الأحاديث عن بعض الدعاة هو حفظ قلوبهم من الوسواس ،

(١) رواه البخاري ومسلم .

ولآذانهم من سماع الغيبة ، ولصدورهم من الضغينة ، وسد أبواب فضول الكلام عنهم ، وإعانتهم على عدم التدخل فيما لا يعني ، أو الانشغال بما لا يجدي .

واستدل ابن حجر لهذا المعنى بذكر بعض أنواع الأحاديث التي يحدث بها قوم دون قوم ، فأورد بعض ما اجتهد به علماء السلف . فقال : (وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات ، وأبو يوسف في الغرائب ، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرايين وأن المراد ما يقع من الفتن ، ونحوه عن حذيفة ، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسليه إلى ما كان يعتمد منه من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الأصل غير مراد ، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب) (١) .

ومما روى أيضاً ما ذكره مسلم عن ابن مسعود : (ما أنت بمحدث قوماً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) (٢) .

قال ابن وهب (وذلك إن يتأولوه غير تأويله ويحملوه على

(١) فتح الباري ١ / ٢٢٥ .

(٢) مقدمة صحيح مسلم .

غير وجهه) .

وخرَّجَ شعبة عن كثير بن مروة قوله : (إن عليك في عملك حقاً كما عليك في مالك حقاً ، لا تحدث بالعلم غير أهله فتجهل ، ولا تمنع العمل أهله فتأثم ، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك ، ولا تحدث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك) (١) .

ومن دواعي التخصيص أيضاً اختلاف قوة الدوافع التي تدفع الدعاة لتعلم علم من العلوم ، وقد يوافق العلم هوى الداعية وقد لا يكون ، وهذا يؤثر بدوره على المربي أو المعلم بإقباله على التدريس وتوفيره على التعليم فلا يطوي ما عنده من المكنون ، ولا يخفي عن جنوده المخزون . ولذلك فاختيار المربين لصنوف الدعاة في استماعهم لأنواع من الكلام يخضع إلى قواعد التربية وأصول البناء .. ، ويحكم ذلك التجارب والممارسات الدعوية وقد قيل :

(لكل تربة غرس ، ولكل بناء أس)

(ولكل ثوب لابس ، ولكل علم قابس) .

وما أحوج جمهور المربين والدعاة لهذا المعنى ، وأن يقتصر حديثهم على ما ينفع ، وترك الخوض في ما يقود إلى الخلاف أو

(١) الاعتصام للشاطبي ٢١٤ .

قسوة القلب ، من حياء ، الوجاهة ، والاهمال ، والافعال ، والفن ، و - وار
القادة ، وخلافات الأقران ، وأخبار السوء .

وهذا لا يتم أيضاً - فوق ذلك كله - إلا بفراغ يد ربها الله تعالى لمن يشاء من عباده العلماء ، حتى يستلزم تمييز المتعلم والاختيار السامع له . (وينبغي أن يكون العالم راسداً وواثقاً بها المتعلم ، ليعرف مبلغ طاقته ، وقدر استعداده وإمكاناته في العالم وأنجح للمتعلم . وإذا كان العالم في نوبة العلم بين يديه البتة ، وكان بقدر استحقاقهم خيراء لم يمنع له غناء ، ولم يمنعه علمه ، يديه صاحب ، وإن لم يتوسد بهم ، ولا تفرق بينهم ، والأهم ، ومبلغ استحقاقهم ، كانوا وإياه في عالم واحد ، وهذا هو المقصود)

(مجلد ...) (١)

وهذا الفراغ منه وإن كان المانع والذات من هذه الأقسام ، فإن
للتقوى والتجارب نصيبها الأوفر .

وقد اعتبر بعض العلماء أن من الضرورة أن تتعاون الإمام والسنة
العلم، بل وإنها من مظاهر الإمامة، فقد قال الإمام الكاظم
مؤكداً لهذا المعنى: (لا يكون إماماً أبداً، وهو يفتقر إلى كل ما
سمع) (٢).

(۱) أدب الدنيا والدين للماوردي / ۸۹ .

(۲) مقدمة صحيح مسلم.

فانظر لهذا الفقه الوافر من الفقيه الجليل ، فالفقه ليس بكثرة الكلام وإنما باختصاره لمن يصلح له ولذلك قيل : (قلوب الأبرار قبور الأسرار ، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد) (١) .

ويجب التنبيه هنا - مع هذا التخصيص - إلى عدم إشعار الدعاة الآخرين من قبل المربين بوجود دورس خاصة ، أو بحوث مميزة ، أو دراسات معينة ، وإشاعة ذلك - وإن كان من الضروري تربيتهم على ذلك ، والرضا به - والسبب ما قد يحصل للبعض من فتور في طلب العلم الأولى والاستزادة ، وتشوقه إلى النهاية ، فينشغل قلبه بحب الاطلاع ، وقد أشار الغزالي لهذا المعنى فقال عن المتعلم القاصر : (ينبغي أن يلقي إليه الجلى اللائق به ، ولا يذكر له وراء هذا تدقيقاً ... فإن ذلك يفتر رغبته في الجلى ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق ...) (٢) .

(١٠) سهولة العبارة مقدمة على صعوبتها :

لأن الأصل تبليغ السامع بالمعنى ، وتوصيل العلم إليه بأقرب طريق دون التواء ، إذ لو صحت النية من المتحدث أو الكاتب لاختار أحسن السبل لإيصال العلم ، ولا يختار الطريق الوعر ، لأنه ليس بحاجة لإثبات فصاحته ، ولا لإظهار عمله ، بل يطلب بالعلم

(١) إحياء علوم الدين ١ / ٥٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ١ / ٥٨ .

رضا الرحمن .

(وعلى هذا النحو مرّ السلف الصالح فى بث الشريعة
للمؤالف والمخالف ، ومن نظر فى استدلالهم على إثبات الأحكام
التكليفية علم أنهم قصدوا أيسر الطرق ، وأقربها إلى عقول الطالبين
، لكن من غير ترتيب متكلف ، ولا نظم مؤلف ، بل كانوا يرمون
بالكلام على عواهنه ولا يبالون كيف وقع فى ترتيبه ، إذا كان قريب
المأخذ سهل الملتبس ..) (١)

ومن المسالك الوعرة فى تصعيب الألفاظ ، وإضاعة المعانى ،
ما قد يلجأ إليه البعض من استعمال المجاز المبالغ فيه ، والرموز الشاذة
المعقدة وجميع أنواع المواضعة الاصطلاحية ، والمواضعة ضربان :
أحدهما : عامة وهى ما تواضع عليه العلماء فى كل علم فيما جعلوه
ألقاباً لمعان لا يستغنى المتعلم عنها ، ولا يقف على معنى الكلام إلا بهاء
والثانية : خاصة وهذا هو الذى لا ينبغى استعماله من قبل الداعية ،
لعدم فائده من جهة ، ومظهر من التخليط فى النية من جهة أخرى
لأنه : (إنما يختص غالباً بأحد شيئين : إما بمذهب شنيع يخفيه
معتقده ، وبجعل الرمز سبباً لتطلع النفوس إليه ، واحتمال التأويل فيه
سبباً لدفع التهمة عنه ، وإما لما يدعى أرباب أنه علم معوز ، وإن
إدراكه بديع معجز) (٢) .

(١) الموافقات ١ / ٥٩ .

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردى / ٦١ .

و كلا الأمرين مما يترفع عنه الداعية ، وحتى لو احتاج إليها
لسبب ثانوي فيربأ بنفسه عنها ، سداً للذرائع ، وابتعاداً عن قتاله
السوء ، ولكن مع هذا : (... ربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد
تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الألفاظ ، ليكون أحلى في القلوب
موقعاً ، وأجل في النفوس موضعاً ، فيصير بالرمز سائراً ، وفي
الصحف مخلّداً) (١) .

وعندئذ لا بأس باستعماله ما دام مفهوماً ، ويقع في قلب السامع
موقعاً جميلاً ، ما دام لا يقود إلى مفسدة ، على شرط عدم المبالغة
والإكثار منه ، أو التكلف للآتيان فيه ، وأن يكون السامعون ممن
تدرك عقولهم مثل هذه الرموز ، ومع هذا فالنقد هنا ينصب على
الخطيب أو الكاتب إذا تكلف الأمر والصعوبة ، وكان يمكن له
التبسيط والتسهيل إذ إنه يعتمد التكلف ويسعى إليه مما يشعر السامع
بأنه يبتغي وراء ذلك شهوة القول ، ولا يحرص على تبليغ المعنى
وربما لا يكون مسؤولاً عن ذلك فقد يكون الأمر بحد ذاته يحتاج
إلى زيادة تأمل وفضل معاناه ، حتى ينجلي ذو الخفاء ، وينكشف
الغامض ، وباستعمال الفكر فيه يكون الارتياض به فيسهل منه
الصعب ويقرب به البعيد ، وعندئذ يبرأ القائل به من الاتهام ، والأمر

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي / ٦١

مردوده إلى نفس الكلام ، أو إلى العسرفى الأفهام ، بل وأحياناً كل
القصور في الفهم من المستمع أو القارئ ، فقد يمنعه مانع من تصور
المعنى وفهمه ، فهذا من قلة الفطنة أحياناً ، ولا ذنب لأسلوب
الكاتب ، وعلى من يستلي بذلك كثرة المطالعة وإعادة النظر ،
والسؤال عما أشكل عليه ، وقد قيل :

(لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ، ويكد نفسه ، وكثرة
الدرس كد لا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنماً ، والجهالة مغرماً ،
فيحتمل تعب الدرس ، ليدرك راحة العلم ، وينفي عنه معرة
الجهل) (١) .

وقد يكون السبب شبهة تعترض المعنى فتمنع من تصوره ،
وتدفع عن إدراك حقيقته ، أو أفكار تعارض الخاطر ، فتذهل عن
تصور المعنى لانشغال الذهن ، وتعب العقل ، وغيباب الوعي ،
فهذه الأمور إذا طرأت على الإنسان لم يقدر على مغالبة قلبه ،
وإجبار عقله ، وهنا يأتي المعنى التربوي الذي قصد من ربانية
التعليم ، والتوسط في التقديم ... وقد قيل : (إن لهذه القلوب
تنافراً كتنافر الوحش ، فتألفوها بالاقتصاد في التعليم ، والتوسط في
التقديم ، لتحسن طاعتها ، ويدوم نشاطها) .

(١) أدب الدنيا والدين / ٦٥ .

وبناء على ما ذكر يظل واجب المربي منتصباً في ضرورة تخير الألفاظ لكل طبقة ، ومعرفة طبيعة المستمعين جزء مهم من الوعي ، وقد يكون التدقيق الكثير مضيعة للبساطة المطلوبة ، ولذلك بوصي بأن : (يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قابل للحظ متخيراً للفظ ... ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقع الألفاظ كل التنقيح) (١) .

بل إن الاسترسال بالمعاني أبلغ حتي في السمع ، وما خرج من القلب يدخل إلى القالب ، وكثرة الشرح والتفصيل تقتل جمال المعاني ، ومن أبيات الشاعر العالمي فيكتور هيجو :
(لا تشرح ، فإن الشرح يفسد طرافة الموضوع) .

(١١) الأساليب الجميلة :

من الربانية استعمال الأساليب الجميلة الحلوة المؤدية للمعنى ، وعدم استعمال العبارات الخشنة الجارحة والتي لها نفس الأداء ، لأن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ، والعبارات الجميلة دليل على شفافية المسلم ، وحسن انتقائه ، وقد قال المصطفى - صلى الله عليه وسلم - : (لا يقولن أحدكم خُبْتُ نفسي ، ولكن ليقل لَقِيت نفسي) .

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٧٣ .

(يؤخذ من الحديث استحباب مجانية الألفاظ القبيحة والأسماء ، والعدول إلى ما لا قبح فيه .. وإن كان المعنى يتأدى بكل منهما ..) (١) وللتعبير أثر في إبراز الحق وكم من حق يخرج به إلى الباطل سوء التعبير ، وما أحسن القائل :

تقول : هذا جناء النحل تمدحه
وإن تشأ ، قلت : ذاقي الزنابير
مدحاً وذماً ، وما جاوزت وصفهما
والحق قد يعتريه سوء تعبير

(١٢) المزج بالرقائق :

ومن الربانية في التعليم مزج كل علم بالرقائق كي تتحقق السكينة الإيمانية ولا يسيطر العقل وحده على القلب ، والفكر على الروح ، فتتحول المعاني الإيمانية إلى فلسفة عقيمة ، وتضيع المقاصد الأصلية لعملية التعليم التربوي ، إذ أن أصل المقاصد في التعليم ربط المخلوق بربه ، وتذكيره بالآخرة ، وجعله يشمر بساعد الجد للعبادة والعمل ، وإلا فدراسة العلم دون هذه النية مضيعة للوقت ، والتهاء بالشهوات وقد قيل :

(رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف

(١) فتح الباري ١٠ / ٥٦٤ .

الصالحين ، فأما مجرد العلم بالحلال فليس له كبير عمل في رقة القلب ، وإنما يرق القلب بذكر رقائق الأحاديث ، وأخبار السلف الصالحين ، لأنهم تناولوا مقصود النقل وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها .

وما أخبرتك بهذه إلا بعد معالجة وذوق فافهم هذا ، وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف الزهاد في الدنيا ليكون سبباً لرقة قلبك (١) .

ولما كان هدف عملية العلم والتعليم القرب من الله تعالى وليس طلب الدنيا بها ، ففي هذا المعنى صلاح للمعلم والمتعلم ، إذ فيه يتذكر المتعلم إن مال العلم القرب إلى الله ، وقصده في القراءة أو السماع تحلية الباطن وأن لا يقصد به مباهاة الأقران ، والتفاخر على الغير ، ويذكر المربي أو العالم نفسه دائماً بنفس المعاني ، ويتذكر أن تعليمه : لله تعالى ، دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده إذا تجافى عن الصواب ، أو فسدت النية .

وهذا المسلك في التعليم لا بد من التذكير به دائماً ، وعدم الأخذ بالأساليب الغربية الباردة حيث الاكتفاء بجوهر الموضوع

(١) صيد الخاطر / ١٩٧ .

فقط ، فإنما تصلح هذه الطريقة للمباحث الطبيعية لاختلاف أهدافها ومقاصدها ، أما التعليم الدعوى فلا بد له من حديث القلب ، وأسلوب القرآن الكريم أكبر دليل على هذا الأمر ، فليس فيه اقتصار على معان محددة ، وإنما يخلط الفقه والأحكام بذكر الموت والآخرة وربطها بالنواب والعقاب ، والله تعالى أعلم بقلوب عباده وما تحتاج إليه .

(١٣) تحذير المحدث من اللجاج :

يكره التزود بما لا طائل بعده .. وكذلك التكلف ، وقد قال الجاحظ في رسائله يحذر المحدث والكاتب من ذلك وناصحاً له : (وأنا أحذرك من اللجاج والتتابع ^(١) ، وأرغب إلى الله لك في السلامة من التلون والتزيد ، وفي الاستطراف والتكلف ، فإن اللجاج لا يكون إلا من خلل القوة ، وإلا من نقصان قد دخل على التمكن ، واللجوج في معنى المغلوب) .

ومعني هذا الأمر عدم اختيار المعاني التي تقود إلى الجدل ، أو التي تستثير الفتن والمشاكل ، أو أن المحدث يختار الرد على ما انتقد عليه ليريح نفسه ، ويشبع غروره ، ويبلغ الانتصار من

(١) والتتابع في الأمر : السير فيه على خلاف الناس .

خصمه ، وكذلك عدم المبالغة بمظاهر التقوى ، وادعاء الزهد ،
والتكلف في الوقار ، وعليه أن يسمع نصيحة ابن قتيبة في مقدمة
عيون الأخبار حيث قال : (وأحببت أن تجري على عادة السلف
الصالح في إرسال النفس على البسجية والرغبة بها عن لبسة الرياء
والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم قارفوا وتنزهت ، وثلّموا
أديانهم وتورعت) .

(١٤) ربانية الجواب :

وأخيراً نختم المبحث بربانية الجواب ، فإن المتحدث أو
الكاتب لا بد من تعرضه للأسئلة ، فكان لزاماً : الجواب عنها ،
وتكثر الحاجة لذلك وسط الدعاة ، بل غالباً ما يكون وقت
الأسئلة للمربين والقادة والخطباء - في كثير من الأحوال -
مساوياً لوقت الدرس أو المحاضرة .

وبحسبنا هنا أن نذكر أهم خصائص الجواب ، قياساً على ما
ينبغي للمفتي أو الإمام عندما يُسأل عن مسألة :

يجوز للمتحدث أو المربي أن يجيب السائل بأكثر مما سأل
(وهو من كمال نصحه وعلمه وإرشاده ، ومن عاب ذلك
فلقلة علمه) (١) .

(١) إعلام الموقعين ٤ : ٢٠٥ .

وقد ترجم الإمام البخاري في نهاية كتاب العلم من الصحيح
(باب : من أجاب السائل بأكثر مما سأله) عند إيراد حديث
المحرم الذي سأله عن ما يلبس المحرم ، فأجابه صلى الله عليه وسلم
: (لا يلبس القميص ولا العمامة ولا السراويل ولا ثوباً ممساً
الورس)

ويؤخذ من الحديث : (إن المفتي إذا سئل عن واقعة واحتمل
عنده أن يكون السائل يتذرع بجوابه يعديه إلى غير محل السؤال :
تعيّن عليه أن يفصل الجواب) (١) .

ينبغي للمربي إذا سأله إنسان عن شيء يحتاج ، ومنعه منه ،
أن يدلّه على ما يعرض عنه ، وهذا من تمام شفقة المربي والداعية
على أخيه حتى لا يدعه في حيرة من أمره ، أو يصعب عليه الأمر ،
أو يجعله يشعر بعدم كفاية المربي .

(فمثاله في العلماء مثل الطبيب الناصح في الأطباء ، يحمي
العليل عما يضره ويصف له ما ينفعه ، فهذا شأن أطباء الأديان
والأبدان) (٢) .

ودليل ذلك منع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لبلال أن

(١) فتح الباري ١ / ٢٣١ .

(٢) إعلام الموقعين ٤ / ٢٠٥ .

يشتري صاعاً من التمر الجيد بصاعين من الرديء ، فقال له في الحديث المتفق عليه :

(بع الجمع بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم جنيها) .

والجنيب : هو المنتقى الذي لا رديء فيه ، أو الكبس .

والجمع : هو الدقل أي رديء التمر .

والمنع - في إطار الجماعة المسلمة - من أمر ما ، دون تبيان السبب أو إعطاء البديل لا يقود فقط إلى الحيرة ، وعدم الشعور بعدم كفاية المربي ، بل قد يقود الداعية - والناشئ خاصة - إلى التخبط والبحث عن الجواب عند شخص آخر ، يوقعه في فتنة .

التنبيه على وجه الاحتراز ، إذا شعر المتحدث أن كلامه سوف يؤدي بالبعض إلى فهم خاطئ ، أو إضافة غير صحيحة عليه ، أو أن هنالك استثناء في أصل المسألة .

وكلما كان كلام المتحدث أو الكاتب مرغوباً فيه ، ومما يتلقفه الدعاة : كلما دعت الضرورة أكثر إلى الحذر في العبارات ، والتنبيه عما قد يحصل من الفهم الخاطئ ، أو التفسير السيئ ، حفظاً للمصلحة ، فليس هنالك ما هو أسوأ من زلة العالم في

اختلاف العقول وتباين الأفهام .

التمهيد للحكم أو القول المستغرب بما يوضح ذلك ، ويدفع
السوء ، حتى لا يسبب مفسدة قبل استكمال الجواب ، وحتى تنبه
النفوس للسماع الكامل ، وحتى يرجع صاحب الغفلة إلى الانتباه
فلا يقع في الوهم .

(إذا كان الحكم مستغرباً جداً مما لم تألفه النفوس ، وإنما ألفت
خلافه ، فينبغي للمفتي أن يوطئ قبله ما يكون مؤذناً به كالدليل
عليه ، و المقدمة بين يديه ، فتأمل ذكره سبحانه قصة زكريا وإخراج
الولد منه بعد انصرام عصر الشبيبة وبلوغه السن الذي لا يولد فيه
لمثله فيه العادة ... والمقصود أن المفتي جدير أن يذكر بين يدي
الحكم الغريب الذي لم يؤلف مقدمات تؤنس به ، وتدل عليه ،
وتكون توطئة بين يديه) (١) .

وبل هذا تكثر الحاجة إليه وسط الدعاة ، كإفتاء في بعض
المسائل التي تختلف باختلاف الزمان والمكان ، أو الخروج عن
المألوف من الأحكام لمصلحة شرعية ، أو لضرورة ، أو التشدد في
أحكام أخرى سداً للذريعة ، أو بعض الفتاوى التي تصح في
دار الكفر دون دار الإسلام ، أو الأخذ بالأحوط حيناً وبالأيسر
حيناً آخر .

(١) إعلام الموقعين ٤ / ٢١٢ .

إعطاء الجواب على قدر فهم السائل ، ولذلك قيل : إن معرفة الناس ضرورية ، وتعرف هذه من قرائن الأحوال ، فجواب سؤال العالم ليس كسؤال العاقل ، والجواب اللازم للداعية الملتزم ليس كجواب من كان جديداً على العمل الإسلامى ، وجواب الباحث عن المعرفة ليس كمن يريد إفحاماً وتعريضاً ، والإجابة فى الجمع ليس كالإجابة لفرد يمكن النظر إلى حاجته ومقصده ، ولهذا اعتبر هذا المنهج من ملامح البلاغة ، فاشتراط للبليغ :

(أن لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوق)^(١)

ولما ذكرنا بعض خصائص الإجابة التى تجب على الداعية الخطيب أو الكاتب ، أو عموم أحاديث الدعاة من الشيوخ والمربين ، فليس من نافلة القول أن نذكر ملخصاً للمواضع التى يكره فيها السؤال ، تعليماً للدعاة وتربية لهم وتنبيهاً ، وأولى المسلمين بالالتزام بها : جمهرة الدعاة على اختلاف مستوياتهم .

ونكتفى بعشرة مواطن مهمة يكره السؤال فيها ، ننقلها – بتصرف واختصار – عن الموافقات للإمام الشاطبى رحمه الله :

« السؤال عما لا ينفع فى الأمور الدينية والدعوية .

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٧٣ .

* السؤال عن زيادة لا فائدة منها ، بعدما بلغ المرء من العلم في المسألة حاجته .

* السؤال من غير احتياج إليه عند وقت السؤال .

* السؤال عن صعاب المسائل وشرارها ، وغرائب الأمور ، والأغلوطات .

* السؤال عن علل الأحكام التعبدية التي لا يعقل لها معنى .

* أن يبلغ السائل بسؤاله إلى حد التكلف والتعمق الزائد .

* أن يظهر من السؤال معارضة واضحة لظاهر الكتاب الكريم والسنة بمجرد الرأي .

* السؤال عن المتشابهات في القرآن الكريم .

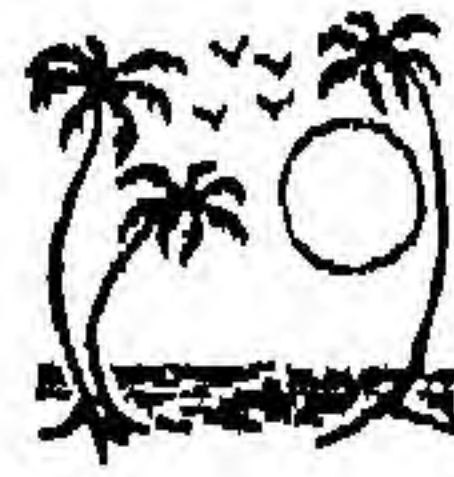
* السؤال عما شجر بين الصحابة الكرام ، وكذلك السلف الصالح وعلماء الأمة .

* سؤال الإفحام ، والتعنت وطلب الغلبة في الخصام .

ثم قال الشاطبي : (هذه جملة من المواضع التي يكره السؤال فيها ، يقاس عليها ما سواها ، وليس النهي فيها واحداً بل فيها ما

تشتد كراهيته ، ومنها ما يخف ، ومنها ما يحرم منها ما يكون
محل اجتهاد (١) .

ويكتفى بهذا الحد من خصائص (ربانية التعليم) ، وما هي
إلا مجرد لمسات ، وقد يرد ما هو أكثر من ذلك في مباحث أخرى
ولعل ما ذكر في هذه الحلقة من هذه السلسلة ما يغطي هدفاً
عاجلاً في إتقان عملية التربية الإسلامية .



(١) المرافقات ٣ / ٣٢١ .

المعايير النسبية لربانية التعليم

يشير مبحث (ربانية التعليم) قضية في التعليم الدعوي المنهجي هي على مقدار عظيم من الأهمية ، وبخاصة أن المذهب السائد فيها ، القائل بالتدرج ، يمكن أن يعاكس بمذهب آخر يقوم على اجتهاد مغاير لا يمنع تجاوز التدرج عند توافر مواصفات وشروط معينة .

وفي مثل هذا الموطن تختلط بعض الاصطلاحات ، كما هي مختلطة في القول المنقول عن ابن حجر من وجوب بدء المعلم بصغار العلم ومقدماته وجزئياته قبل كبارها ونتائجه وکلياته ، فصغار العلم تعبير واضح ، وبيان المقدمات قبل المقاصد أو النتائج أمر يوجبه المنطق ، ولكن تناول الجزئيات قبل الكلّيات ، والفروع قبل الأصول ، هما من الأمور المنهجية التي يتعدد فيهما الصواب ، وتختلف فيها النظرات ، وفي كل منها مقدار لا يمكن تجاوزه من وجوب التدرج الذي يتلاءم مع نظرية الربانية هذه ، إنما فيهما أيضاً مقدار من تأخير فتح ذهن الطالب المتعلم على صنعة التحليل والاستقراء ، والقياس والاشتقاق ، في وقت ربما تكون فيه حدة ذكائه في أقصى مستوي لها ، وشغفه وإقباله في أكمل حضورهما

وبخاصة عند بداية التعلم ، حيث تستبد الأشياء وتستعر الهمم ولذلك يمكن ويجوز لبعض المربين أن ينتهج نهج تدريس العلوم من أعلاها ، بذكر المهم قبل الثانوي ، وذكر الكليات والقواعد والموازن قبل الفروع والجزئيات والمقدمات ، استثماراً لعاملي الذكاء والإقبال من باب ، وقذفاً لهذه المعاني في اللاشعور من باب آخر وإن لم يدرك الطالب تمام ما فيها ، وتدريباً له أيضاً من باب ثالث على التحليل والتركيب في وقت مبكر يجعله يلتزم المنهجية في استقبال المعلومات وتصنيفها ومعرفة قيمتها.

وقد يعطي المربي طلابه مثل هذه القواعد والتمارين التحليلية على جرعات ووجبات بينها فواصل زمنية يرجع خلالها إلى تعليمهم الجزئيات والفروع ، وهذه الطريقة تفرضها حاجة ماسة مرئية مجربة في الواقع هي مفاد نظرية الربانية ، إذ كيف يستطيع الاستقراء من لم تكن له ثروة من المعلومات الجزئية يستطيع إجماله النظر عبرها ليستقرئ منها شيئاً من الملاحظات والأمور المتكررة على نسق واحد ليجمع منها قاعدة ، مثلاً ؟ وكيف يستطيع القياس والاشتقاق من لم يحط أولاً بخبر الحكم الواضح الثابت الذي يقاس عليه أو يشتق منه ؟

ولهذا فإن مسألة تقديم الأصول على الفروع أو العكس يمازجها اجتهاد منهجي ، ونظر ذوقي فراسي ، كما يتحكم فيها

نوع العلم ، ومستوى الطالب في الذكاء والاستعداد ، ولا نرى الإطلاق في صحة أحد المنهجين المتعاكسين ، وإنما هو اختيار للمربي تحكمه التجربة . بل وتحكمه المفاخرة أيضاً في بعض الأحيان ، كما هي اختيار كذلك لواضعي المنهج التربوي ، ولكن هذه النسبية ليست نفيًا للتدرج ، وليست هي أقل أثراً وأهمية في إثبات وجوب نظرية الربانية ، فإنها تتضمن هذا التدرج المبتغى وإن جاز الوجه الآخر ، وفي ذلك دفع وإبطال لغلط الدعاة المربين الذين يغفلون ولا ينتبهون إلى ضرورة التسلسل أو التدرج الذي تدعو إليه نظرية ابن عباس وابن حجر في ربانية التعليم .

لماذا تربية التقليد إذ الاجتهاد قريب ؟

وجماع القول في هذا الأمر ينقسم إلى ثلاث شعب :

(الشعبة الأولى) :

أن الإسراف في تعليم الفروع ، وتجريدها ، والغلو في عرض المقدمات بدعوى التدرج : يؤديان إلى نشوء عقلية تقليدية محضة تستولي على التلميذ وتجعله سلبياً ، لا يطمح إلى أعمال التفكير ، ويصبر اتكالياً في العلم ، بينما الواجب على المربي أن يثير في التلميذ كوامن القابلتين المتعاكستين ، التحليلية والتركيبية ، من أجل إنماء العقلية الاجتهادية فيه ، وإنما يكون ذلك بطريقة عرض

الأصول والقواعد ، وقد يكون الداعية المربي نفسه بحاجة إلى هذه الطريقة من معلم أعلى يعلمه ، أو من خلال المطالعة المكثفة ، إذ إنه بدوره ضحية منهج الاستغناء بالفروع الذي كان سائداً ، بل إن أكثر علماء الأمة الإسلامية اليوم هم ضحية هذا النمط الذي استولى على طرائق التعليم فى قرون التخلّف الأخيرة .

(الشعبة الثانية) :

أن المعنى المغاير للتدرج يتأكد فى المحيط الدعوى بخاصة ، وذلك بسبب كون الدعاة الذين هم فى طور التلمذة رجالاً راشدين وأصحاب ذكاء ، ولم يقبلوا فى الجماعة الدعوية أصلاً إلا من بعد قيام قرينة على توفره فىهم ، وأيضاً لأن الكثير منهم أصحاب دراسة جامعية وربما أصحاب شهادة أعلى ، مما يعنى اطلاعهم على أبواب من العلم التقعدي والتحليلي ، وهو وإن لم يكن فى المجال الشرعي إلا أنه مفيد ، إذ يوجد سبيل استطراقي مشترك بين العلوم ، وبعضها يؤثر فى البعض الآخر ويمهد له ، والمقدرة الاجتهادية تنمو جزماً لدى دارس للقواعد الإدارية والاقتصادية ، أو لدى متتبع للظواهر الفيزيائية والمعادلات الرياضية ومثل هؤلاء إذا كانوا من الدعاة وأردنا تعليمهم العلم الشرعي فإن الطريق يختصر لهم اختصاراً ، وتقوم علومهم التطبيقية أو دراساتهم الإنسانية مقام الترويض الذي يرجوه المعلم من الفروع والجزئيات ، ويمكنه أن يبدأ معهم دراسة الكليات والأصول .

تأثر التربية بعوامل عديدة غير التدرج :

(الشعبة الثالثة)

أن أمر صياغة العقلية الناضجة الكاملة التي من صفاتها الاجتهاد أبعد من أن تسأل عنه هذه الطريقة في التدرج أو عدمها ، وإنما هي عامل واحد من جملة عوامل وفنون عديدة تجتمع لتنتج الأفق الواسع ، وقد يكون سرد هذه العوامل مضمراً لدى الباحثين حين يكتبون ، ولكن القارئ ينحرف بمقاصدهم إلى أحادية التفسير ، ويجعل القضية المبحوثة كأنها الوحيدة المسؤولة عن الظاهرة المرصودة وسببها المفرد ، وليس ذلك بصحيح ، ولا يليق أن نستدرك على مثل هذا الخلل في التلقي مقدماً وابتداءً بذكر جميع ما هنالك من أخبار وفنون التربية ، لأننا نخاف أن يؤدي الإيجاز غير المشروح إلى خلط آخر وتنزيل للكلام على غير منازله المقصودة .

الحوار سنة السلف المربين :

وإنما يسعنا هنا أن نشير إلى أن الحوار بين المربي وتلميذه هو أحد أهم الوسائل الأخرى لتكوين العقلية الاجتهادية الإبداعية ، ويأتى مسانداً للطريقة المضادة للتدرج التي أشرنا إلى نسبية صوابها ، بل ومسانداً لطريقة التدرج أيضاً ، قد مالت

(منهجية التربية القيادية) في سلسلة العين إلى شرحه وتجيده
وجعله معلماً بارزاً من معالم هذه التربية ، وهي تذكرنا بما كان من
حوار ثري دفاق دائم يومي في مجالس أبي حنيفة مع أصحابه
رحمهم الله ، من أمثال أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني
وزفر بن الهذيل ومحمد بن زياد اللؤلؤي والقاضي الكندي ، أو
مجالس الشافعي بمصر مع أصحابه رحمهم الله ، من أمثال
البويطي والمزني والحميدي ، ومن قبلهم الحسن بن محمد
الزعفراني وأصحابه ببغداد ، حتى أن كتاب « الأم » الواسع كان
ثمرة لتلك المحاورات التي رأسها الشافعي ، وليس هو من تأليف
الشافعي كباحث متأمل على انفراد ، وقد تلقف الغريون هذه
الطريقة عن المسلمين وطوروها وجنوا نتائجها الجيدة ، حتى أن
أطفالهم في المدارس الابتدائية اليوم ليتقنون الحوار ، وبشجاعة ،
وربما وقف أحدهم أمام التلفزيون وتكلم بكلام مرتب واضح لا
يدخله تلعثم ، في الحين الذي لا يزال بعض الدعاة في الشرق
يربون أصحابهم على السماع المجرد ، ويكون التلميذ الدعوي
أمامهم كأنه وعاء يجهدون أنفسهم على صب كم هائل من
المعلومات فيه وهو صامت مراقب فحسب ، فكأنه قرص كومبيوتر
يتم ملؤه ، وأنى للقرص أن يتناوش الاجتهاد من مكان بعيد ؟ .

أهلُ يسابقهم الغرباء : -

لكن منافع المحاورات ، ومسوغات تجاوز التدرج في المحيط الدعوي لا تنفي حصول فوضي مشهودة تعدت كلمات المعلمين خلالها حتى المقادير الدنيا الواجبة من التدرج ، وتحررت من ضوابط تجاوز التدرج ، فأضرت ، ولو كانت قائمة على اجتهاد لجازت ، ولكنها لم تنتسب لأحد المذهبين ، ولم تصدر عن نظر وقصد وعمد وذوق وفراصة ، وإنما هي مجرد ارتجال وإهمال فيهما غفلة عن المعايير المنهجية التي تستند إليها الآراء المتعاكسة في التدرج أو عدمه .

وساعد على هذه الظاهرة بوجه خاص ما شاع في المؤتمرات الطلابية الإسلامية المقامة في أوروبا وأميركا من دعوة كبار الكتاب والمفكرين والقادة للكلام أمام جمهور عريض من السامعين ، أكثرهم من المبتدئين وصغار الشباب الذين يليق لهم الكلام العاطفي وحديث الحماسة أكثر مما يليق لهم كلام المفكرين والقادة الذين ربما لا يجيدون الخطابة والألفاظ الرنانة كإجادتهم للمحاضرة والتدريس وطرح القضايا ذات العمق ، وقد يضطربهم شعار المؤتمر إلى تناول أبعاد تخطيطية أو إيراد نقد شمولي بمستوى أرفع من إدراك أكثر المشاركين .

وصحافتنا الإسلامية مسؤولة هي الأخرى أيضاً عن تسبب هذه

الظاهرة ، إذ أننا بسبب ضمور الحرية في إصدار الصحف :
انعدمت في أوساطنا الصحافة المتخصصة ، فليست هناك صحف
خاصة للسياسة ، ولا للفكر ، ولا للشباب ، ولا للأطفال ، ولا
للنساء ، وإنما هي صحف قلائل نادرة تحاول أن ترضي كل
الاهتمامات والمستويات والأذواق معاً ، فيطلع الشاب والمستجد
على كثير من الكلام الذي يتجاوز مرحلته الابتدائية فينشأ عنده
الفضول والخوض المبكر فيما يستحسن أن يمسك عن الكلام فيه ،
ومباحث مجلتي المجتمع والأمة شاهدة على ذلك .

وموجة كتب (أين الخلل) و (النقد الذاتي) و (المذكرات)
زادت رقعة الفضول اتساعاً وأصبح ابن البارحة الذي يحمو
يعتلي المنابر ليعظ القادة ، ويصوّل في (التأصيل) ، ويسجول
في (الشورى) ، ووقع أناس في الخلل إذ هم يبحثون عن الخلل
ليبرأوا منه ، وأصبحت الشورى مشجبةً تعلق عليه نطلعات النفس
ذات الأخطا .

الحيثيات المتضادة في ربانية التعليم :

والموقف إزاء هذه الظاهرة يمكن أن ينقسم إلى موقفين ،
ولكل موقف سلبياته وإيجابياته ، ويمازج صوابهما التكدير .

فقد يصح أن نستقبل هذه الظاهرة بشيء من البرود
واللامبالاة ، وندعها تمر ، ونترك المتكلمين في المؤتمرات

والصحف والمذكرات ليتكلموا على رسلهم ، وبكلمات كبار فيها نقد وتقعيد وتخطيط والسبب في ذلك رؤية حيوية قدرية أقنعت المربين بأن الموفق هو من وفقه الله تعالى ، بذكاء يخلقه فيه ابتداء ، وبنفس زكية سوية ، وشخصية قوية ، أو بتيسير في يومياته من بعد خلقه ، من صحة وعافية ، ومال يرفعه عن حد الفقر الموسوس ، وزوجة صالحة تسره عشرتها ، وأمثال ذلك ، وهذه العناصر بمثل هذه التوفيقات ينفعها هذا الكلام العالي ، ويصعب حصر ذوات هؤلاء وإحصاؤهم لنحتكر لهم الحديث ، ولذلك نتكلم للجميع ، فمن كان موفقاً انتفع ونفع الدعوة وصار ضمن الجيل الجديد الوارث لنظرات المعلمين المتكلمين ، المطبق لها ، وازداد تنمية لفكره بما يبدع ، وأما الذين يسمعون ولا ينتفعون فلسنا نبتشئ لسماعهم ، فإنهم إما أن ينسوا ما سمعوا ، وهذا خير أحوالهم وأحسنها ، أو يكون منهم الفضول والتدخل فيما لا يعينهم في سلسلة من الأذواق السيئة التي تنتهى بهم إلى حارج الدعوة ، وكأن قدر الخير هو الذى جعلهم يتخلفون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم سماع المنتفع الذى يتلمس طريق العمل ، فيثبت ويزداد رسوخاً .

وقد يصح - فى رأي آخر - أن نستقبل هذه الظاهرة بنوع من التخوف والحذر ، فلا نتكلم بأصول وموازين ، وغير ذلك من كبار العلم فى المجالات العامة ، خوفاً أن نفسد فطرة المبتدئين ، ونساعد

على تأسيس الفضول ، فنكون السبب في إتلاف كثير من شباب الدعوة من حيث لا نشعر ، وتكون هذه العناصر ضحية خطأ تربوي يرتكبه القادة والمفكرون بتحديثهم هؤلاء أحاديث لا تبلغها عقولهم ، فتكون فتنة لهم .

ولكل من الرأيين وجاهته وحديثاته المقنعة ، ويبدو - والله أعلم- أن القول النسبي في ذلك أصح ، بحيث نلجأ إلى أحد الرأيين حسب الظروف المحيطة بالدعوة ، إن كانت شديدة ذات محن ، أو أوقات يسر ، وبحسب سعة الجيل السامع الجديد ، إن كان ضخماً يحتمل النحت منه من أجل انتقاء الأشداء الأذكياء ، مثل جيل الصحوة الحاضر ، أم هو جيل محدود تحتاج حتى أصحاب النقص من أبنائه ، وأيضاً بحسب المجموعة القيادية ، إن كانت كبيرة ومتحدة ومنسجمة الفكر ، أم هي صغيرة وتعيش حالة تباين في الاجتهاد ، وعندئذ نحذر أن يستقوي أصحاب أحد الاجتهادات بشباب جدد يلفونهم لفاً من حيث لا يدركون ، فيكون سواد واسع يؤيد اجتهادهم في الظاهر بينما هو في الحقيقة سراب فكري وتخطيطي لا يستند إلى أركان متينة ولا صورة واقعية ، لبداية مؤيدي هذا الاجتهاد وكونهم مجرد مقلدين .

والتأمل الطويل في أوصاف المرحلة الدعوية الراهنة تجعلنا نميل

إلى تفضيل الرأي الأول الذي نتكلم فيه بكبار العلم حتى ولو كان ذلك في المؤتمرات والصحف والكتب المنشورة ، مع ما يخالط ذلك من سلبيات أكيدة ، إذا أن نظرة الترجيح بين المصالح والمفاسد تجوز لنا ذلك من حيث المبدأ ، ولا تشترط لتصرفاتنا أن تكون مجموعة مصالح محضة ؛ وإنما نعمل بالمصلحة الراجحة وإن مازجها شيء من المضرة أقل منها ، ففتنة الفضولين حاصلة بشكل أكيد ، ولكن تربية جيل جديد بأفق واسع وعلى سنن الإبداع والفهم الحضاري تشكل مصلحة أكبر .

كلمات التقوى وصفات المرونة : مصاعد الاجتهاد

ولكن نضبط هذا الانفتاح فى الكلام بشروط منها :

(الشرط الأول) :

أن يكون كلام الرقائق مشاعاً في أوساط الدعاة ، بحيث تميل المواعظ وأحاديث الأخلاق الإيمانية بالداعية إلى التواضع والأدب في التعامل واحترام المقابل وعفة اللسان إذا أغرته أحاديث الأصول والقواعد بإبداء نقد أو التقدم بين يدي أساتذته .

(الشرط الثانى) :

أن يرافق ذلك سعي لشرح النظرية السياسية الإسلامية وأبعادها ، لأن المعاني الكلية والتعميمات إذا لم يفهمها الداعية

جيدا وأخذها على ظاهرها فلربما يذهب في التأول بعيداً ، ويميل إلى الإطلاق والأحكام الحادة فينفي بقواعد الجهاد احتمالات الهدنة ، ويلغي بموازين الاستقلال مناورات التحالف ، ويستعلي بأحاديث العزة والصبر على إفتاء الضرورات ، بينما تمده النظرية السياسية الإسلامية الشاملة بعقلانية وتوازن مع المحيط ، وتجعله احفظ للدماء ، والأموال والأعراض ، وأحرص على تقليل الشمن الواجب عليه دفعه وتهبه من المرونة ما يتملص به من المحاصرات ، أو تنفذ به إلي حضور قسمة له فيها نصيب إذ يريد المنافسون أن تكون ضيزي .

القضاة الفاضلون في دار الأمان :

(الشرط الثالث)

أن تتوافر قدوات كافية في المحيط الدعوي ، من قادة ومربين وعلماء ، يعجلون بالرد والتقويم وإرجاع الأمور إلي نصابها الصحيح إذا اشتط مغرب فركب شذوذاً ، لأن الاعتماد على الكتابة يسبب تسويفاً وتأخيراً ، ولربما وصلت الصفحات بعد الخراب ، بينما يؤدي الاستدراك السريع من القدوات النازلة إلى ميدان المخالطة دوره بشكل أكد ، فإن لم ينفع لفظ ، نفع آخر ، وإن انغلق معنى ، فتحه تمثيل ، وإذا أشكل قياس ، أظهره تعليل ، نقداً ، يداً بيد ، هاءً بهاء ، غير نسيئة ولا محال إلى مؤتمر لاحق .

(الشرط الرابع) :

أن لا يكون الزمن زمن فتنة وخلاف ، فإن حرص النفوس على حظوظها يجعل بينها وبين الصواب القريب حجاباً ، حيث يغلب على الأفئدة أن تطيع أهويتها ، ومن الخير آنذاك أن نجهد الأفكار ونقطع لسان الأصول والكليات وكبار العلم ، لبتاح مجال للتقوى أن تهمس في الآذان داعية لنفسها ، ولتكون لحروف الإصلاح بين الناس قناة جارية .

في الرواق والركن لا في الساحة :

(الشرط الخامس) :

أن لا يكون قصد المفكرين والقادة الكلام بكبار العلم في المؤتمرات والصحف عن عمد واستمرار يجعلها هي الوطن الطبيعي لهذا النوع من الكلام ، أو الوطن المختار ، وإنما يجعلون ذلك من باب الاستثناء بقصد اكتشاف وإثارة وتشجيع عناصر قوية ذات إبداع ربما لا يصلون لها بطريق الاتصال الخاص ، وأما كثافة ما ينقلونه من كبار العلم مما علمهم الله فيجب أن يكون عبر المدارس القيادية والمجالس المنهجية المتكررة ، ليتم الشرح بأوفر ما يكون البيان ، وليكون الحوار المباشر المستخرج من قلب الأستاذ لما لم يكن قد زوره سلفاً من المعاني والإرشادات .

ننتظر رشد الرهط

(الشرط السادس) :

أن يشدد في تعليم الفروع وصغار العلم أيام مراهقة العمل الدعوي في بلد ما ، فكل عمل يمر بمرحلة المراهقة هذه ، بعد اكتمال تأسيسه وقبل توسعه وانفتاحه ، وهي ذات ظواهر نفسية تعترى المجموعة تشابه إلى حد كبير طباع الفتى المراهق ، من تقلب الرأي ، والعناد ، والإغراب ، والجنوح إلى الخيال ، وحب المغامرة ، وكراهية الرقابة ، فإذا جاءت المباحث العالية وحقائق العلم الكبيرة في أيام المراهقة الحركية هذه فإن المجموعة يمكن أن تنحرف بها إلى جدل طويل يصاحبه اختلاط الأصوات ، أو تنجح به إلى اجتهادات شاذة ينكرها عرف الفقهاء المجريين ، ولكن يكون تداول كبار العلم بعد مرحلة المراهقة هذه ، إذ تهدأ النفوس ، وتميل إلى العقلانية ، وتشعر بضرورة الواقعية ، وعندئذ يؤتى تعليمها نتيجته المرجوة ، ويساعد على تفجير الإبداع الشخصي لدى أذكىاء الدعاة . ومثل هذا التعليم في المرحلة المتقدمة يفترض أن يقوم به جيل من المتعلمين تربى على كبار العلم من قبل في مرحلة التأسيس من خلال دورات خاصة ورعاية مكثفة .

والمنهجية دوماً

(الشرط السابع) :

والالتزام بالمنهجية في العمل والموضوعية في الفكر تعصم من الانحراف ، فإذا شاعت مجموعة من المبادئ المنهجية ، والأعراف الصحيحة ، والموازن الدقيقة في مجموعة الدعاة : ولدت كبهاً للفهم الخاطئ ، وبها نمنع تسرب التفاسير المشوشة ، والتأويلات المفرطة البعيدة ، وبذلك تظل الأجواء نظيفة دائماً ، وتعمل القواعد المنهجية والأعراف التنظيمية كمرشحات تحول دون سلبات الانفتاح ، وخصوصاً إذا أضيف إلى ذلك إشاعة مفاهيم أدب الحوار ، وأخلاق المناظرة ، واعتاد عليها الدعاة من خلال الممارسة والتطبيق ، مما يجعل الشطط دائماً يحصر في أضيق الدوائر .

كوابح ... تمنع التصدر

(الشرط الثامن) :

وكلما كانت شروط التوثيق وقواعد الانتقاء أكثر وضوحاً في محيط الجماعة ، والضوابط الحازمة أشد سيطرة : كلما قلت سلبات تعليم كبار العلم وکلياته ، لأن حديث القواعد والأصول فيه بلاغة وجمال صياغة ، وفيه دغدغة لعقول الشباب الأذكياء ، وقد يستغل معلم متطلع إلى مراكز الصدارة هذه الخصائص في

طبيعة هذه القواعد فيستثير بها إعجاب الشباب ، ويصنع له (شلة) موالية ، ويجعل اللذة التي تصاحب كلماته ثمناً يدفعه لإدامة ولاء هؤلاء ، غير ناظر إلى ما يسببه لهم من فتنة بحديث فوق مستواهم ، حتي لكأنه فيلسوف يديم انشداد الناس إليه بغموضه وتمتماته المبهمة ، بينما يؤسس فقه التوثيق جملة قاعات في نفوس الشباب تمنعهم من السير وراء من لا يملك غير اللسان وتزويق الكلام .

فهذه وأمثالها شروط يرجى أن تقلص معها سليات المباحث الكلية ويجمعها أن نحتاط لأنفسنا ما استطعنا بتعلم صنعة العقلانية فإن فيها الرشاد والاتقاد ، وأما العواطف فصنعة لعلالما موّهت بدعة مبتدع فنشرتها أو غلّفت الإغراب فأذاعته ، وكم من فكر كاسد غناه شاعر مترنم يعزف على أوتار القلوب فأصبح رائجاً .

كانت المتاهة رغم وضوح المعالم الهادية

ويؤكد الظن في لياقة بعض المبتدئين لسماع الأصول والقواعد : مشاهدات حيوية وتاريخية تشير إلى أن فتنة بعض المبتدعة كانت بسبب فهم قاصر لبعض الفروع ، وتنزيلهم لها على غير منازلها ، أو قياسهم عليها قياساً مع الفارق ، ويغنيانا عن تتبع الشواهد لهذه الملاحظة في التاريخ الإسلامي القديم ما شاهدناه ،

وما زال خبره حياً فينا من وهم التكفير لدى بعض الشباب المتحمس الصادق التوجه بلا شك ، فإن ظاهر النصوص المفردة الفرعية الجزئية في أبواب الردة والكفر هي التي تسببت في شطحاته ومذاهبه القاصية عن مقاصد أهل السنة والجماعة ، ولذلك كان رد من ردد بدعتهم معتمداً على الأصول والقواعد بشكل مكثف ، وجاء مثل رد الشيخ القرضاوى في نقض التطرف مفهوماً مع أن قلمه جال في ذروة الفقه وحام حول أعلاه ، وكذلك كانت الأصول العشرين من قبل ، مما يمنحنا قناعة بأن الأمر يتعدى مجرد الأسلوب التقليدي في دراسة صغار العلم وجزئياته قبل كبارهم وكلياته ، وأن طرق التدريس ومناورات الكتابة إذا كانت ماهرة واستوعبت أطراف المعاني فإن عظام المسائل وضخامها تلين قناتها وتصبح سلسلة مفهومة ، ولا تستلزم هذه القناعة ادعاء هدر العلم الجزئي تماماً والبدء بتداول الكليات دون سابق أية معرفة بجزئيات الأحكام ، كما لا يستقيم الاعتراض على هذه القناعة بمثل هذا الإلزام لما لا يلزم ، بل قل أن يوجد داعية يرتاد المساجد ويسمع خطب الجمعة والمواعظ على مثل هذه الدرجة من التعري والتبري من علم الجزئيات ، ولكن قناعتنا تفهم بالحسنى ، وبالحدود الوسطى ، وهي تأكيد لعدم الإسراف في تدريس الجزئيات والمقدمات أكثر مما هي محاولة تجاوز وهجر لها .

عطاء التفاعل الحضاري يعين على الاجتهاد

وتتيسر محاولات تفهيم الكليات وأمّهات المسائل هذه الأيام بوجود ظاهرة (التفاعل الحضاري) في المجتمعات الحديثة ، فإن معظم دعاة الإسلام من جيل الصحوة والذين من قبلهم هم من المثقفين الذين يحيون حياة عصرية فيها قراءة للصحف اليومية ومشاهدة للبرامج التلفزيونية ، فوق ما حازه أكثرهم من دراسة جامعية وعليا ، وهذه الدراسات والسماعات والمشاهدات لها تأثير مباشر ودور مكثف في صياغة عقلية الداعية ومفاهيمه العامة وأذواقه كفرد في المجتمع ، بغض النظر عن صفته الدعوية ، ويصبح بوجود هذه التأثيرات صاحب استعداد جيد لاستقبال علم القواعد والنتائج والأصول وفهمه بسرعة ، وبشكل قد يعجز عنه الطالب الذي يحيا حياة بدائية ، أو الذي اختار له أستاذه أو اختار لنفسه العزلة اليبوسة التي تنحرف بمزاجه وأذواقه ، وكأن أكثر الكلام المنقول عن الفقهاء في ضرورة التدرج في التدريس وتقديم الجزئيات على الكليات كان يراعى من هم على هذا النمط في اليبوسة والعزلة المنتجة للسذاجة والبساطة .

إن إيماء المعادلات الرياضية لدارس الرياضيات - كمثال من أمثلة التفاعل الحضاري - هو إيماء قوي جداً ، يغرس في أصل عقل الدارس وفي لاشعوره معاني التعادل والتوازن والتساوي المطلق أو

التساوى النسبي ، فى مغاني أخرى هي نفسها مرتكزات لكثير من القواعد الفقهية ، بحيث يتلقف الداعية الرياضي هذه القواعد حين روايتها له بسهولة ويسر ، نتيجة الخلفية الذهنية المساعدة التي يملكها .

والداعية الكثير النظر للأشكال الهندسية ، وما فيها من تناظر أو تدرج في الأطوال ، أو تميز بحدود حادة ، أو تجاوز للمساحات الصماء وذوات الثغرات ، وأمثال ذلك : هو داعية طريقه ممهد لمرور معاني الفقه في التدرج والاستثناء والفروق والشروط ، بالتوسطة التي صنعتها الهندسة .

وداعية آخر أطال استمتاعه بجدول الألوان وما ينسجم منها وما يتنافر ، ومرّت عينه على موازين الجمال الفني : هو داعية أسرع إحاطة بما فى النتائج الفقهية من منطق متجانس صحيح .

وهل إحياء معني التكامل والتصاعد أقل منه لدى دارس الكيمياء الذي يحيط علماً بالجدول الدوري للعناصر ، ويعرف خبر ما يفعله كل بروتون يضاف لنواة الذرة من خصائص جديدة ؟

وهذه أمثلة فحسب لما عسى أن يسببه التفاعل الحضاري وتناول العلوم التطبيقية و الفنون من توسيع للآفاق وتفتيح للأذهان

يسهل معهما التفهيم الفقهي ، والداعية اليوم إن لم يكن جامعياً فهو مشاهد للتلفزيون ، قارئ للصحف ، وحائز من مطالعاته ومشاهداته لنصف العلم ، ثم هو سائح في مدن وطنه أو مدن العالم يرى نتاج المهندسين والفنانين مع كل نظرة وإن لم تكن عامدة ، فتنتبّع في لاشعوره الموازين والظواهر الحيوية الممردة لاستقرار الموازين الشرعية .

الجمال ... وغرام العقل

وأما مَنْ لا يحيا حياة العلوم وانعزل في قرية بين الخضر والجبال والطير فليس هو بأقل من صاحب التفاعل الحضارى ، فإن هذا ترق أحاسيسه ويحدث له ما يحدث للشعراء من إرهاف والتذاذ بالجمال ، فتزكو نفسه ، وتتنزّ ، وتطمئن ، حتى تكون سكينتها هي الممهدة لقواعد الفقه الكبيرة ، وله مع لون وشكل كل ورده خلقها الله تعالى وتلمسها أنامله وتقبلها شفته وينتبع خيالها في شغاف قلبه : قُبلة عقلية أخرى لميزان من موازين الفقه ، وإطلالة على الاجتهاد .

لكن المحروم هو من حرم هذا وهذا ، فعاش في عزلة عن الحضارة والمدنية ، وعن آيات الله في الآفاق ، وهو من سَجَنَ نفسه بين الجدران حتي يخشوشن طبعه ويتبلد عقله ، أو حبسه أستاذه

في مدرسته وجعل له من وظيفة حفظ الحواشي ما يطيل معه حتى ظهره ، ولمثل هذا كانت وصايا تدريس علم الجزئيات قبل الكليات .

قلوب أمم ..

ولا يظن ظان أن هذا النمط من تأثير التفاعل الحضاري أو الروح الشاعرية إنما هو وليد عصرنا الراهن ، بل هو قديم ضارب في القدم ، ولذلك كان علماء بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأمثالهم أوعى من علماء النواحي القصية ، لتفاعلهم مع معطيات الحضارة الإسلامية التي كانت عامرة في هذه العواصم ، ولذلك أيضاً كان شعراء الإيمان في تاريخ الإسلام أصحاب مهارة في فقه النفوس ووصف خصائصها وأحوالها ، لانعكاسات الحياة الجمالية التي عاشوها مع الشجر وترقرق الماء ، حتى أن الواحد منهم ليُعدّ مؤسسة ثقافية شاملة لوحده بما يحوز من أحاسيس وخواطر يصطبأها ، وتأملات في حوادث الدهور ينتبه لها ، ورؤي تاريخية ، ولغة ثرية ، وربما يكون أحدهم مُقلّاً لم يترك غير قصائد قلائل أو قطعاً متناثرة ، لكنها تشكل اكتشافات لسنن الفطرة هي في أصول الذوق وأصول حركات القلب أخوات أصول فقه المعاملات .

ربانية التعليم قضية منهجية خططية

ونظراً لهذه الحقائق من تأثير التفاعل الحضاري أو الجمالي في الصياغة العقلية والنفسية للمتفقه فإن على التربية الدعوية إذا أرادت لتدريبيها إتقان صنعة الاجتهاد الإبداعي أن تنحى منحى دفع الدعاة - وفق منهج متكامل - للعيش في البيئة الحضارية العلمية ، والتعامل معها ، والاستلال منها مع ما يكملها من سياحة وتعرّف على خلاصة عقول وعلوم وفنون البشر عبر آلاف السنين ، المعروضة في دور الوثائق والمتاحف والأماكن المصانة ، ثم في مطالعة صفحات جمال ما خلق الله في البراري والبحار ، أو تكثيف مطالعة الخطوط السود في الصفحات البيض مما سطرته أنامل كل إنسان ، من أدب شعري ونثري فيه رمز وخيال وعاطفيات وانتقاء ألفاظ ، أو تاريخ يكشف الحقائق ويحلل دروس الحياة ويقابل بين قبح الظلم وإشراق العدل ، أو وصف يعين على تصور البعيد ومعرفة ما غاب ، أو فقه لغات يطور الاشتقاق الذي فيه إلى مهارة في قياس الأحكام .

إن قضية (تداخل) صغار العلم وكباره ، أو تسلسلهما ، ليست هي مجرد وصية تقدم إلى المعلمين ترجوهم أن يتقنوا فن التربية وفق معيارها ، فمنهم متقن وقليل إتقان ، وإنما هي - في وجهها الأهم - قضية منهجية عميقة ينبغي أن يحكمها التخطيط

التربوي بعيد المدى ، وعلى المنهج الجماعي أن يراعيها ويضع
جداول عملية تطبيقية لتبليغ وتفهم الثوابت الموازين والأصول
والقواعد لعموم الدعاة بعد إحصائها وتصنيفها نوعياً ، وكذلك
الفروع ومفردات الأحكام ، لكل طبقة ما يوازي حاجتها ومقدار
استيعابها ، ويستعين بلمسات منهجية متناسقة مع اختياراته يلزم
بها المجلات الدعوية ، ويطلب من اللجان والأجهزة المركزية أن
تنسجم نشراتها وأساليب كتابتها مع تلك الاختيارات أيضاً ، ثم
بأن يتضمن المنهج ما نتمناه للداعية من ذاك الحضور في البيئة
الحضارية ، والسياحة ، ونيل الثقافة العامة ، والعيش التأملية مع
جمال الخليفة ومع آيات الله في الآفاق العريضة ، يتعنى لأقصاها ،
ويتغنى - مثل داود عليه السلام - مع تسبيحات الحمال والطير....
ثم يكون آخر دعائه أن : الحمد لله رب العالمين .



الفهرست

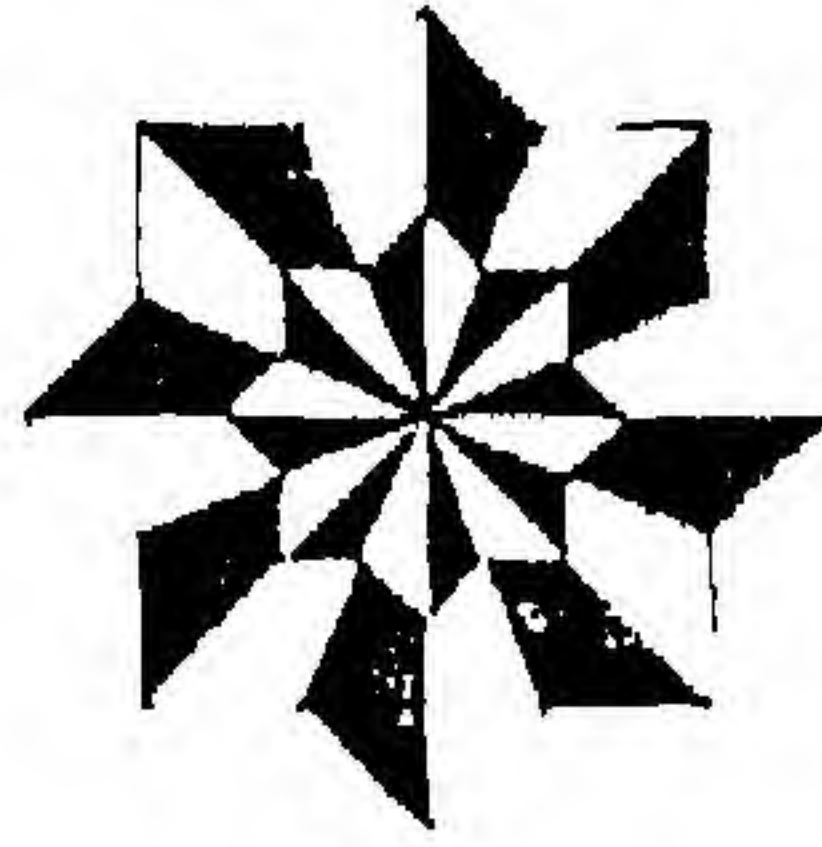
الصفحة

الموضوع

٥	هذه العين
٧	عين الأعيان
٩	تمهيد
١٢	مبررات ربانية التعليم
١٢	* من أجل عدم الوقوع في المفسدة لقصر الفهم ...
١٤	* عدم إضاعة العلم
١٥	* عدم التنفير من العلم والتخبط به ..
١٦	* عدم الوقوع في الترف الفكري ..
١٧	* الأمان من الخطأ
١٧	* الابتداع في الدين
١٨	* انصاف الناس
١٩	* عدم التوازن بين العلم والعمل
٢١	آفاق الربانية ..
٢١	١ - الجزئيات قبل الكليات
٢٣	٢ - الأصول قبل الفروع
٢٧	٣ - العلوم الشرعية بالنسبة لغيرها من كبار العلم
٢٩	٤ - صلب العلم قبل ملحه

٣٠	٥ - الواضح قبل الغامض
٣٢	٦ - المرونة قبل الأخذ والعطاء ..
٣٢	٧ - التدرج
٣٦	٨ - المتفق قبل المفترق
٣٨	٩ - التخصيص
٤٣	١٠ - سهولة العبارة مقدمة على صعوبتها ..
٤٧	١١ - الأساليب الجميلة
٤٨	١٢ - المزج بالرقائق
٥٠	١٣ - تحدير المحدث من اللجاج ..
٥١	١٤ - ربانية الجواب
٥٩	المعايير النسبية لربانية التعليم
٦١	- لماذا تربية التقليد إذ الاجتهاد قريب ..
٦٣	- تآثر التربية بعوامل عديدة غير التدرج ..
٦٣	- الحوار سُنَّة السلف المربين
٦٥	- أهل يسابقهم العرباء
٦٦	- الحيثيات المتضادة في ربانية التعليم
٦٩	- كلمات التقوى وصفات المرونة ، مصاعد الاجتهاد ..
٧٠	- القضاة الفاضلون في دار الامان
٧١	- في الرواق والركن لا في الساحة
٧٢	- ننتظر رشد الرهط
٧٣	- والمنهجية دوماً

٧٣	- كوابيح ... تمنع التصدر ...
٧٤	- كانت المتاهة رغم وضوح المعالم الهادية .
٧٦	- عطاء التفاعل الحضارى يعين على الاجتهاد
٧٨	- الجمال وغرام العقل
٧٩	- قلوب أمم
٨٠	- ربانية التعليم قضية منهجية خطئية
٨٣	الفهرس





General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

﴿ عَيُّونُ الْأَعْيَانِ ﴾

إن دعاة الإسلام هم أعيان الجيل الحاضر ، لا جدال ، بما وهبوا من همة تحرص على الإصلاح ، وتجرد يعيد ضرب المثال .

ولهم تصدر هذه السلسلة ..

فلهم مع كل إشراقة جديدة .. تحية ...

إن هدف « رسائل العين » يتركز في كشف الآفاق الرحبة لفقه الدعوة ، وتجارب العمل الإسلامي ، وأنماط معاناة المربين ، ووضع كل ذلك بين يدي شباب الصحوة الإسلامية ، تعليماً لهم ، وتمكيناً .

لكن الأبعاد الحضارية مكملة لكل ذلك ، لأننا نعيش حياة الانفتاح من جهة ، ونواجه حضارة مغايرة تتدسس بهدوء ولباقة أو تجاهر بالغزو ، من جهة أخرى ، فكان لابد للداعية المسلم أن يسعى نحو الثقافة الشمولية ، وأنواع العلوم والفنون ، ليعلو فوق التيار ، مسيطراً مهيمناً ، وكان على هذه السلسلة أن ترافقه في دربه الحضاري هذا تعين ، وتستكشف له ، وتنبه الخبر ، ووكيلها في ذلك : محمد أحمد الراشد ، ينتقى ويختار ، إن لم يكتب ويعقب ، ومعه على قدم سواء : الدكتور عبد الله يوسف الحسن ، يكتب وينقح ويطور ويوسع الدوائر .

على أن الاستقصاء في إيراد كلام الفقهاء ومراجع نصوصهم ليس من وسيلة هذه الرسائل ، وإنما هو الاستئناس والتبرك بأقوال السلف ، ولا نرى أن يلزمنا داعية ما ألزمته الجامعات أصحاب البحوث ، وإنما نهتم نحن بالتعليل والقياس والتأويل ، مما يوجب على الممارس التأمل في عباراتنا على ضوء واقع العمل الإسلامي ، وأن يدرك المعاني التي لذهب إليها من خلال الإشارات والمجاز .

فقرر أن تكون حسن المطالعة والاستيعاب ، بمقابل ما ترجموه منا من حسن الكتابة والاختيار ، وكرر المطالعة : يؤذن لك بمزيد فهم ، وقدم نسخاً أخرى من هذه الرسائل هدية إلى إخوانك : تنتشر الفوائد ، ويروج مذهبك في الإصلاح ، ويقتنع بمثل قناعاتك عددٌ أوفر ، فتكون النتيجة أقرب ..

ثم سبّح معنا ربّاً هادياً... ونصيراً .

دار البشير للثقافة والعلوم

طباطبائي أمام كلية الشريعة النورية
331800 - 228277 فاكس 322404

